الدكتور رضا سعادة

ذكريات و حنين



ذكريات وحنين

الدكتور رضا سعادة

ذكريات وحنين

دار المواسم
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعـة الأولـى
١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م

الإهداء

إلى كل متذوّقٍ للأدب الممزوج بالتعب،

الراشـح بالمعـانـاة.

أهـدي هذا الكتاب.

مدخل

إذا كان عملي الإداري، في الوظيفة العامة، منذ عقدٍ ونصف من الزمن، قد حرمني نعمة ومتعة الإنصراف الكامل إلى الكتابة، والتأليف الذي كان بوسعي أن أفيه حقّه تماماً فيما لو كنت أستاذاً جامعياً فقط؛ فإن ضيق الوقت الذي قضيته، وسأبقى، في خدمة وطني وأهلي في الجنوب، لم يَحُل، مع كبير الهمّ، بيني وبين أن يرشح قلمي من حينٍ لآخر، مقالةً تعبث بها المعاناة، فخرجت من ظلمة التعب إلى نور المتعة وراحة الضمير.

وتجمّعت هذه المقالات، بعد نشرها تباعاً في مجلاتنا وصحفنا الوطنية الزاهرة، فاخترنا منها تسع عشرة مقالة، تتوزّع مضامينها بين الأدب القصصي، والأدب التربوي، والأدب الاجتماعي، والتوجهات الأخلاقية والتعمير الديني الصحيح. وقد جُمعت في هذا الكتاب، وأُدرجت تسلسلياً تبعاً لتواريخ كتابتها ونشرها، وليس تبعاً لموضوعاتها التي كانت تغطي أحداثاً، أو تنطلق من مواقف وإلتزامات.

لقد أخذتْ تلك المقالاتُ من الأدب جماله، ومن الفلسفة فكرها، ومن الأحداث واقعيّتها. وقد كُتِبَتْ بصدق، إن لجهة تصوير الوقائع، أو

لجهة التعبير عن الأحاسيس والمشاعر. إنه الصدق الذي أفتخر به شعاراً في حياتي.

لقد كفاني أخي وصديقي الدكتور يحيى شامي مهمة إعادة مطالعة هذه المقالات قبل جمعها في كتاب. كما تفضّل عليّ بتقديم الكتاب فأعطاني أكثر مما أستحق.

كذلك كان لأخي وصديقي الدكتور حسن عاصي، صاحب «دار المواسم»، الفضل في نشر هذا الكتاب، والاهتمام به أكثر مما يهتم بكتبه.

«ذكريات وحنين» ليس للماضي فقط! وإذا كانت مهمة الذكريات تقتصر على استحضار ما انقضى من الأحداث؛ فإن الحنين، كما يكون إلى ماضٍ رائع وبهيج، يكون أيضاً إلى مستقبلٍ مشرق، نتوسّم فيه الخير والعافية والمحبة.

أرجو أن ينال «ذكريات وحنين» إعجاب القرّاء والأصدقاء، وأن يُغني لهم مكتباتهم على صِغَرِ حجمه.

مع تحياتي لكل قارئٍ عزيز

أيار ١٩٩٧

رضا سعادة

تقـديـم الكتاب

بقلم الدكتور يحيى شامي
أستاذ الأدب في كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الجامعة اللبنانية

تقـديـم

ما كنت أحسب أن هذا الإداري الحامل هموم التربية، منكبّاً على أوراقها الرسمية، يحرّر هذه، يوقّع تلك، هو نفسه صاحب هذه البواكير من الأوراق ذات الطابع الأدبي، وقد انفلتت من رتابة النصّ، وتحرّرت من سلطان كل ما هو رسمي أو وظيفي . . .

وما كنت أحسب أيضاً، أن هذا الأكاديميّ الجامعيّ المدرّس للفلسفة، ويا لمسائلها الفكرية المجرّدة في الغالب من العاطفة أو الإحساس، هو نفسه من توفّر على كتابة هذه الخواطر الشهية المذاق، الفنيّة المساق، التي فيها من العاطفة والإثارة والإحساس، ومن الخيال، فضلاً عن إعمال الرأي ووهج الفكر، ما يربو على المنال ولا يخطر ببال . . .

كنت أظنّ أن الحديث عن المعلم ومناقبيّته.. المعلم الشمعة والقدوة والرسول والمثال، حديث خرافة، يوم خرّ السقف على أهل العلم، وهان العلم على أعداء العلم، وانكفأ القلم يلوذ بالصمت، فما ينطق إلاّ الأبرق اللّماع، ولا يتكلم إلاّ السيد المطاع، عُدّته الغَضْبُ الباتر، والرصاص الجائر ـ لا أعادها الله من أيام ـ . .

عجيب أمر هذا الرجل ما أطول أناته، وأشد مراسه! أفي غمرة هاتيك الجِوَاء، وخلل سحب المحنة وشدة البلاء، يمتشق هذا الفارس اليراع، ويأبى إلاَّ أن يكون وفيّاً للكلمة الصَّناع؟!

ظننته، وهو رئيس المنطقة التربوية، طلّق المدرسة إلى غير رجعة، وخلد إلى الراحة، بيروقراطيّاً قد يُنظَرُ إليه، زوراً وبهتاناً، وهو وراء المكتب، أو على منصّة الخطابة في المحافل؛ فإذا هو، كما اصطنعه الله وبراه، معلماً خُلِق، وللمدرسة خُلق: يرعاها، يحنّ إليها، يصنعها، يبلور أخبارها، يقفو آثارها.. معلّم هو، هكذا تمثّل لي.. معلم هو حتى اللحم والشحم والعظم..

يوم أفلست المدرسة الرسمية، أو كادت: نهبوا محتوياتها، انتهكوا حرماتها، هجرها ربّانها، لبس المعلم فيها لبوس التاجر، أو الصانع، أو السمسار.. كان صاحب هذه الأوراق يبني ما تهدّم، يجمع ما تفرّق، يرتق ما انفتق.. أباً للمدرسة الرسمية، كان، رؤوفاً، وأماً رؤوماً.. بالفعل، لا بالقول، كان، فحسب.. ألم يضرب المثل للصغار، وهو الكبير، يوم ضمّن سجّل قيد مدرسة العدوسية الرسمية أسماء فلذاته، عنيت بناته وبنيه، ولسان حاله يقول: **﴿أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم﴾** ـ صدق الله العظيم ـ. ترى هل أدرك رضا سعادة، يومئذٍ، بحدسه الفنّي والوطني، أن المدرسة الرسمية هي الأساس، وأن معلّمها، وإن شطّ به المزار، ونأت به الدار، هو المتوهج النبراس، إذ ها هي المدرسة الرسمية، اليوم، تسترد عافيتها، وها هم نتية لبنان يدخلونها أفواجاً، ومن كل فجٍّ فتيات لبنان وزهراته يأتينها من بعد سباتٍ عميق؟؟

مقالات شتّى تُبصر النور لأوّل مرة في كتابٍ واحد، بعد أن كان

دَأَبَ صاحبنا على نشرها في الصحف اليومية، والمجلات الدورية المحلية، منذ سنة ١٩٧٩ حتى سنة ١٩٩٧، وهي، في معظمها، مستوحاة من واقع الحياة الاجتماعية والسياسيّة والتربويّة والثقافيّة التي عاشها لبنان، جنوبه خاصة، إبان الحرب الأهلية، وتعساً لها وتبّاً، وما أعقب تلك أو تخلّلها من عدوان إسرائيلي غاشمٍ ظلوم..

سمُها مقالات انتقادية في السياسة والاجتماع، إن شئت (الحرية وهم.. لعبة القذائف.. جيل الشباب بين الضياع وتحقيق التطلعات.. هذا الكائن جامع المتناقضات.. عالم «الشبّيحة».. مغدوشة المساء والصباح.. الزواحف.. أيادي الطحين.. الرائعة الغنائية.. هلال لا هلالان..).

ومقالات تربوية محورها المدرسة والمعلّم والتلميذ، في إطارٍ من النصح والإرشاد والتوجيه، إن شئت أيضاً، سمُها، ما هُمّ (روضة رسمية لأطفال الجنوب.. إرحموا أطفال مدرسة معروف سعد.. مشكلة الشباب.. مدارس صيدا القديمة.. تفتح صيدون...).

سمُها ما شئت، يا صاحبي، فهي كل هذا. أما أنا، أنا الذي لسعته الحرب بسياطها، ورمته بدائها، وكم لي ولصاحب هذه الأوراق من ذكريات فيها، فحسبي منها، من تلك المجموعة، بالإضافة إلى ما ذكرناه، إثنتان تندرجان في صميم أدب الرحلة، وهما: (عقل ضائع في اسطنبول، وليلة في البيت الحرام) وحسبي أخريات عدّتها أربع، هنّ واسطة العقد (معلم الضيعة.. الأب يتقبّل التعازي.. عندما لا يستحي الجبناء.. مريام وزوجتي وأنا..) أقول، حسبي هذه وتلكما، فإن بها ما يبعث الذكرى، ويثير الحنين..

هي باقة تأنق صاحبها في تأليفها، فإذا هي من لباب أدب الأقصوصة، أي القصة القصيرة، لجهة التركيز على موضوع معيّن: شخصية، فكرة، حادثة.. يلقي عليها النور، فتبرز بصورةٍ قشيبةٍ واضحة ومؤثّرة..

أدبٌ قصصيٌ ممتعٌ حقاً، فيه العديد من المكوّنات الفنيّة القصصيّة: أشخاص بملامحهم الخارجية وقد اندغمت بأحوالهم الداخلية، أمامك يخطرون.. أحداث تنمو، تتطوّر.. تأزّمٌ، تعقيد.. حلٌ أو نهاية.. كل هذا في سياقٍ تأليفي بديع، وضمن إطارٍ من التحليل للنفسيّات والطبائع، أصيل.. وإن كنت من هواة استقراء اللون المحلّي، وعشّاق الفولكلور، فدونك منه، أيها القارىء، الشيء الكثير.. معرض فنّي للواقع في شتى مظاهره.. قدرةٌ على التعبير.. تفنّنٌ في التصوير.. وعيٌ اجتماعي.. تحرّر، انعتاق.. ارتفاع عن السقوط في التقليد.. ألوانٌ متداخلة عرف رضا سعادة كيف يمزج بينها، ينقّي، يظلّل، يضيء..

دعابة مرحة، تطالعك في كتابته، مقالةً كانت أو أقصوصة، التفاتة نقدية.. تلميحة ذكية.. نظرة شاملة على مرونة وسرعة استجابة.. ثقافة واسعة (مثالها: الصيام، ورسالة الحج).. بصيرة نافذة.. خيال متوهج، أحياناً.. شعور متنبه.. موضوعية، ذاتية.. دقّة ووضوح.. ذوق يسبر الأثر الفني، يتبعه، ينقل ما فيه من تجربةٍ شعورية.. يُعلّل، يستنتج.. يتألّم.. يشكو..

«ذكريات وحنين»، باختصار، مزيجٌ من هذه الألوان جميعاً، من هذه الثنائية التراكمية، ذكريات وحنين.. نزوع، شوق، لذة، ألم، ورد وشوك.. ذكريات، وما أعزها وآلمها، ما زالت حيّة في أذهان الكثيرين، وهل نسينا الحرب، أهوالها، لا بل هل نحن بمنجىً حتى اليوم، مما

يتربّص بنا، من مكائد وقذائف قادرة على أن تُدخِل الرعب إلى روع مريام، وأمّ مريام، وأبي مريام، في كل حين..

حنين، وأي حنين.. إلى القرية وكتّابها.. إلى السبّورة وطبشورها.. إلى معلّم الضيعة، المربّي والمنشىء والحكم، والمراسل، والقاضي فضّاض الخصومات.. إلى البراءة والطهر والعفوية.. إلى الزمن الذي كان فيه الدين على الفطرة، والصوم على الفطرة، والاحتفال بالعيد، عيد الفطر، والتثبّت من هلال الأول من شوال على الفطرة، يوم كان الهلال هلالاً واحداً، لا هلالين أو ثلاثة..

آه، يا رضا سعادة، ما أحلاك في ذكرياتك، في حنينك ولهفتك، لا إلى الماضي فحسب، بل إلى المستقبل، واعظاً، موجّهاً، حيناً، مُستوفز الحسّ حيناً آخر، ناقداً، ثائراً، مستنفراً أبداً، غيوراً على بني جلدتك الذين ترعاهم وترأسهم، عنيت معشر المعلمين..

سلام عليك خبيراً بالصوم وفلسفة الصوم، بالحجّ ومعنى الأذان في الناس بالحجّ.. سلام عليك مربياً من الطراز الأوّل، ضليعاً بالتربية، مثقفاً، حرّاً تتكلّم على الحرية، مسؤولاً تشرح معنى المسؤولية.. سلام عليك، وبورِكتَ، وبورِكَتْ بواكيرك (ذكريات وحنين)، فامضِ، يا رضا، وهات من معطياتك، من لفتاتك وانتقاداتك وتحليلاتك واستنتاجاتك.. هاتها فُراداً ومثاني ومجاميع، أحرِ بها كلها أو بعضها أن تعتمد نصوصاً أدبية مختارة تُزيّن بها كتب القراءة والمطالعة في مختلف مراحل التعليم، الإبتدائي، والمتوسط والثانوي.. هات من أدبياتك هذه يا رضا، فلقد أعجبني، والله، سمتُك وأسلوبك وقصصك، وهزّتني مشاعرك.. امضِ على بركة الله، وهات ما عندك من هذا الأدب الحيّ ذي النزعة الواقعية..

هات منه، وحدّثنا أكثر فأكثر: عن التنور، عن الجدّة، عن مصطبة الدار، عن مسكب الورد ورائحة الطيّون.. عن الساقية، يا رضا، حدّثنا، عن الرابية، عن حجر الزيت ونصوب الزيتون.. عن الزعتر والوزّال.. عن صبايا العين والطاحونة والبنيّات والجرار.. عن تلك الوادعة في الأسفل من الريحان.. عن النوّارة عربصاليم وأتراب عربصاليم..

هات، يا رضا، وحدّث، فإنك، مع تقديري لموقعك الاجتماعي، ولمسؤوليتك التربوية، لبالأدب، والأدب وحده، أنت تخلد بعد عمرٍ مديد، وأنا بهذا زعيم.

د. يحيى شامي

المقالة الأولى

الأب يتقبّل التعازي بالمولودة الجديدة

الأب يتقبّل التعازي بالمولودة الجديدة

(قصّة قصيرة)[1]

كان مرهقاً جدّاً، فأجلسه العناء في صالون الإنتظار في قسم التوليد. زوجته داخل غرفة العمليّات، وهو تصرع رأسه الهواجس، والآمال المتشابكة المتداخلة. لم يكن خائفاً على زوجته أبداً، إنها الولادة الثانية، وهو يثق بالمستشفى وتجهيزاته؛ لكنّه متألّم فقط لما يتصورّها تعانيه من آلام المخاض. لذلك كانت تدمع عيناه بين الفينة والفينة، عندما يبلغ ذلك التصوّر عنده أقصى مداه. كانت تهزّه تلك اللحظات الحاسمة، التي يريدها أن تمرّ بسرعة ليعرف حظّه بالمولود الجديد؛ إنه ينتظر مولوداً ذكراً. كما يريد لهذه اللحظات أن تستمرّ وتبقى، مخافة أن لا يحالفه الحظّ، فلا يرزق بما يحب ويشتهي.

كانت ابنته البكر في الشهر الخامس عشر من عمرها، وهو يحبّها بشكل جنوني. وما تصوّر يوماً أنه مظلوم بها، ولا تمنّى لو كانت صبياً. صحيح أنه يوم بُشّر بها اسودّ وجهه، لكنّما بشكل عابر

(١) كانت هذه باكورة الأعمال الأدبية القصيرة، التي بدأنا بنشرها اتباعاً في الصحف والمجلات، اعتباراً من أوائل سنة ١٩٧٩م. وقد نشرتها جريدة السفير الغرّاء في عددها رقم ١٧٣٦، يوم الأحد الواقع في ١٨ شباط سنة ١٩٧٩م.

كالبرق الذي لمع وانتهى. ومن ثمّ نسي الأمر وعاش مع حبّها فقط. لكن الناس من حوله كانوا يفسدون عليه هذا الانسجام، فيحاولون تذكيره دائماً، عن حسن نيةٍ أو عن سوء نيّة، بأن هناك ما ينقصه: **إنه الصبي، إنه الذكر!** كانوا يشاركونه الفرحة بابنته الملاك، بجمالها، بذكائها، بخفّة دمّها، ثم يختمون إعجابهم بها بالعبارة الشائعة المألوفة: «**الله يزيّنها بعريس**». عبارة كانت تتكرر على مسامعه صبحاً ومساءً، حتى اعتادها، وراح يردّدها هو نفسه، كلما داعب بأنامله جبين طفلته وخُصَلَ شعرها الذهبي. وبدأ مع تردادها يأمل العريس فعلاً، فلقد نزل عند رغبة الناس والمجتمع، وقرّر أن ينتظر عريساً يزيّن أخته العروس، ليستطيع من ثمّ أن ينزل عند رغبة الحياة وتعقيداتها، من متطلبات تحديد النسل، التي بات يفرضها حسن تربية الأطفال وتنشئتهم، في خضم الغلاء والضائقة المعيشية.

إنّ على الأرحام قبل أن تيأس، أن تكون قد أنجبت بناتٍ وبنين. هذا ما يريده الناس، والمجتمع. فوجود البنين ضروري لتنتقل المواريث على سنّة الله ورسوله. كما أن عصا الذكورة دعامة للكنية التي يعتزّ بها الآباء. فالرجل لا يعصر التراب، ويكسر رأس الصخر، ويبني ويجمع ويُحصّل ليورث صهراً غريباً، بل يجب أن يكون هناك ذكور تلهط المواريث. وهل تكتمل شخصية الأب إلاّ إذا كنّي باسم كبير بنيه؟

كل هذه الحقائق، أو السخافات، لا فرق؛ راودته وهو على أحرّ من الجمر ينتظر اللحظة الحاسمة. وهَمّ بإشعال سيجارة، لكن صوتاً دوى في آخر الممر قطع عليه رغبته في التدخين. إنها الممرضة تنادي: مدام س. (اسم زوجته) **عروس!** مبروك...

يا لها من شقيّة. صوتها كان شؤماً، وصرختها سفكت دم أحلامه فأردتها قتيلة. لقد خسر معركة الحظ. إنه لن يُكنّى. لن يورث صبياً ولن تتزيّن عروسته الصغيرة بعريس. لقد أصبح أباً لابنتين، إنها الكارثة قد حلّت.

وثب من مقعده كالحصان، وتوجّه صوب الصوت وصاحبته، وحاملة الأطفال التي تدفعها أمامها. إنها طفلته الثانية. قالت الممرضة وهي تتابع سيرها ووجهها مفتول إلى الوراء: أُنظر كم هي جميلة. طبعاً لم يستطع تمييز قبحها من جمالها، فقط تراءت له ملامح الوراثة في وجهها المتعثّر. وتابعت الممرضة سيرها حتى غربت مع الطفلة عن ناظريه، فتراجع ليجد نفسه في عالم جديد.

العجيب في الأمر، أن نبوءات الأصدقاء والجيران والمقرّبين قد كذبت كلها. لقد تنبأوا جميعهم بالصبي وليس بالبنت. أوّل من تكهّن كانت الخالة، التي أكّدت أن «**على رأس إبنتكم صبي**» لأن في مؤخرة رأسها «**نقرة شعر**»، أي أن شعرها يتمحور من الوراء بشكل دائري. هكذا حصل معها هي يوم أنجبت ذكراً. أما الأصدقاء والصديقات، فقد تنبّأوا بالصّبي لأن شكل الحمل هذه المرّة كان مختلفاً: الهمّة خفيفة، البطن «**مكوّزة**» وليست مفلوشة... ثم إن الزوجة الحامل قد **تبشّعت** وهذا أسطع دليل! آخرون قالوا سَتَلِدُ صبياً لأنها تمشي **منحنية الظهر** قليلاً إلى الوراء، وآخرون أيضاً أجروا عليها التجارب، كيف تجلس، وكيف تتحرك، وكيف تحس بحركة الولد في أحشائها، وكيف **تذبذب** قلم الرصاص المدلّى بخيطٍ فوق معصمها، وغير ذلك من الخرافات كثير. والأنكى من ذلك كلّه، أن الجارة العجوز قد

أقسمت بالله العلي العظيم أن الزوجة ستنجب ذكراً، وهي عندها ما تستند إليه طبعاً وما تستدل به من الحجج والبراهين[1].

لقد كذب المنجمون! فابتلع الأب التعيس ريقه وراح يتمشى باحثاً عن حلٍ مناسب. لكنه مقتنع سلفاً أن لا حل للمشكلة. المشكلة هي في أنه رزق بنتاً وهو يريد ابناً. ولكنها بنت، لقد سقط رأسها وانتهى الأمر. وبادرته حلول سحرية وأوهام، فقال في نفسه: ربما أخطأت الممرضة؛ قد لا تكون المولودة ابنتي! وربما حصل خطأ في نسبة المواليد إلى ذويهم، فيكون مولوده ذكراً وقد نُسِبَ إلى غيره. لماذا لا يذهب بنفسه ليتحقق من الأمر ويراجع؟

أضغاث أحلامٍ تعبّر عن الهروب من الواقع وعن التنكّر له في الوقت ذاته. لكنه واقِع مرير تحرّض مرارته على الهروب منه. والعقدة لم تكبّل الأب وحده، لقد سبق أن سَطَتْ على الأم أيضاً قبل الولادة. يذكر الزوج جيداً، أن زوجته قد رأت في منامها قبل موعد الولادة بأسبوعين، أن المولودة أنثى. وحيث تأكّدت من كونها أنثى، فقد أعادتها إلى أحشائها فوراً! إنها رغبة الأم نفسها في أن تَلِدَ ذكراً وألاّ تلد أنثى، وهي لخوفها تتمنّى لا شعورياً لو يبقى الجنين في جوفها، فالرحم يستر عورته ويخفي أعضاء جنسه.

انتهت مراقبة الأم، فأعلن الطبيب أن الولادة طبيعية، وأمر بنقلها من غرفة العمليات، فنقلت إلى السرير الثالث في الغرفة العاشرة. وهجم الزوج المصدوم برفقة حماته يهنئانها بالسلامة. لم

---

(١) لم تكن وسائل التكنولوجيا الحديثة يومها قد عرفت بعد (التصوير الشعاعي الذي يكشف جنس المولود قبل الولادة).

يكن ينوي التحديق في وجهها حتى لا يكتشف كل واحد منهما مشاعر الآخر. لكن حماته نهرته قائلة: ماذا تنتظر لتقبّل زوجتك؟ فأمسك بيدها وقبّل أناملها المرتجفة بسرعة، بعد أن رمقها بنظرةٍ خاطفةٍ فردّت عليه بابتسامة. ومضى يجلس في زاوية الغرفة مفسحاً في المجال لتدخّل الآخرين، من المرضى المجاورين والزوّار، ليأخذوا عنه المبادرة بالحديث، وينقذوه من الورطة التي وقع فيها؛ إنه عاجز تماماً عن إخفاء مشاعره، وأمره يكاد يفتضح شيئاً فشيئاً.

الغرفة هادئة منعشة، يتمنّى المرء أن يرتادها وهو فرح مغتبط. وليس حزيناً مهموماً. كان فيها سريران آخران، على السرير الأوّل تستلقي سيدة في مقتبل العمر بعناءٍ شديد، يَدُلُّ اصفرار وجهها على تعب النفس والجسد. ولا أحد بجانبها. ففكّر صاحبنا في نفسه: ربما ولدت هذه السيدة أنثى وقد **فرّ زوجها** إلى الخارج! وعلى السرير الثاني تجلس متربّعةً سيدةٌ في عمر أمه، على وجهها ملامح القناعة والارتياح، وقد بادرتهم بالقول: الحمد لله على سلامتها... ماذا أنجبت؟ **فأجابت الحماة: عروساً**.

تابعت السيدة:

ـ أهي بكر؟

ـ لا، عندها بنت، وهذه الثانية **«تقبرني شو حلوة»**. تبسمت السيدة على مهل، و«لطشتهم» بهدوءٍ وأدب:

ـ «معليش، ما تزعلوش»، الحمد لله على السلامة، إن شاء الله، المرة القادمة «عريس».

وجنّ جنون الأب من جديد. لماذا العريس للمرة القادمة وليس لهذه المرة؟ ومن يضمن له إن رضي واقتنع بالمرة القادمة، أن لا يقع في دوّامة المرات القادمات؟ والله أعلم!

الأعصاب لم تعد تتحمل الإثارة، لذلك تنحّى جانباً، على كرسي مريح، مسبلاً أمامه قدميه، مستداً رأسه، شاخصاً عينيه في أفق السقف القريب. وتابعت حماته محادثة السيدة، دون أن يتنبّه تماماً لكل ما تقولانه. لكنه فهم من مجمل الحديث، أن تلك السيدة قد أنجبت لتوها الذكر الحادي عشر، وأنها اكتفت بإنجابه، بعد أن حمدت ربها، وأجرت عملية «تسكير الأنابيب»! فشعر بغبنٍ لم يكن ليشعر به البتة. إذ ما هذا الإجحاف العظيم بحقّه، إنه لم يفكر في حياته بذكورٍ بالعشرات، كان يريد منهم **واحداً فقط!**.

وتابع التفكير في مسيرة الهموم، بعينين مغمضتين وقلبٍ نابضٍ بحدّة، وغفا دون أن يفقد وعيه تماماً، على وسادةٍ من الأحلام الخائبة جرّته للتجوال في عالم الناس والأصدقاء. فصديقه كامل، أنجبت زوجته ذكراً «شافوه ومش مصدّقين». وزميله فؤاد أنجبت زوجته اثنين، وبقي مع ذلك متواضعاً. أمّا ماهر فعنده ثلاثة **«والطمع بالدين»**. بينما لم ينجب حسن سوى ابنتين يتولى تربيتهما بأمرٍ من زوجته. وقد رزق صديقه الطبيب ثلاث بناتٍ جميلات، أمّا جاره القريب فقد استقبل الرابعة **«والخير لقدّام»**.

والمتعارف عليه أن المئات من النساء تلد أربع بناتٍ خامسهن ذكر، وإلاّ فَسِتُّ بناتٍ سابعهن ذكر، أما المنكوبات منهنّ فَيَلِدْنَ تسع بنات عاشرهن ذكر.

وافترّ ثغره عن ابتسامة شامتة بهؤلاء جميعاً، فلا جعله الله أبداً في عدادهم.

وفي غمرة الأحلام المتصارعة، تنبّه الرجل لجلبةٍ تجتاح الغرفة المائلة إلى السكون. وقف بخفةٍ وذهول، وإذا بهم يستحدثون سريراً رابعاً ويطرحون فوقه سيدة شاكية متألمة، جلست بقربها كهلة تجر ثوبها على الأرض من **شدة الإيمان والتديّن**، ولم يبقِ حجابها من الوجه سوى استدارة الأنف والعينين. إنها أمّها، ذلك ظاهر في عطفها وحنانها. وقد أفادت بإجراء القيصرية لابنتها، وبأنها قد وضعت أنثى! ولم تدع للحاضرين أية فرصة **لتقديم التعازي**، فباشرت بتلاوةٍ مجتزأةٍ للآية الكريمة: ﴿... يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * .. وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[1]. وتمّمت حماته الحديث بالقول: «على كل حال يا أختي، المثل بيقول: **البنات ولا الحايلات**».

أدخلت تلك الآية في نفسه الرهبة والتعقّل، وفكّر، لماذا منذ ألفي سنةٍ وحتى اليوم، **لا زالوا يقدّمون التعازي بالمواليد الإناث؟** بينما تنطلق زغاريد البهجة والفرح للمواليد الذكور، **ويصلّون على النبيّ عند قدوم الصبي**. وكم من غرفة استقبالٍ إذا دخلتها رأيتها مزيّنة بصورة طفلٍ عارٍ ينتصب عضوه المذكّر فخراً لذويه!

عادات متأصّلة تعود جذورها للجاهلية، يوم كانوا يئدون بناتهم في رمال الصحاري. وبالرغم من مظاهر التقدّم والتطوّر في جميع

---

(١) سورة الشورى، الآيتان رقم ٤٩، ٥٠.

الميادين، تفلسفاً وتنظيراً، إذ تُشن الحملات على المتخلّفين الذين يميّزون بين الذكر والأنثى؛ فإن التجربة لا تزال قاسية حتى يومنا هذا. فكم من تقدمي معاصر، لا زال إذا بُشّر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم!

* * *

في اليوم التالي، استقبل أبو البنتين في المستشفى صديقه إسماعيل، الذي وصل لتوّه وقدّم التعازي بالمولودة الجديدة. إنه صريح حتى الصفاقة، لكنه صادق لا يمالىء. وبعد أن استرخى على مقعده، التفت إلى صديقه معاتباً:

ـ على كل حال الحمد لله على سلامة «المدام». أما أنت فسامحك الله، إذ كان باستطاعتك أن تتجنب ذكراً بكل بساطة! أجابه الأب بلا مبالاة:

ـ لا وقت لدينا للهذيان يا صديقي! فأجاب:

ـ لا، ولكنك أنت الجاهل بالعلوم والطرائق.

وتابع دون أن يترك مجالاً لغيره في الكلام:

ـ هناك طريقتان: إذا كنت من هواة علم النجوم، فليس عليك بحسب الأشهر القمرية، إلاّ أن تعيّن **الأيام الفارغة** من الشهر فلا تتم المقاربة فيها. وقد أثبتت هذه الطريقة نجاحها. أما إذا كنت من روّاد العلوم التجريبية، فهناك طريقة معقّدة بعض الشيء، ولكني حاضر لشرحها لك ساعة تشاء. ولا أظنك مقدم الليلة على عملية إنجاب جديدة. وإذا انتظرت بضعة أشهر أخرى، فقد يكون باستطاعتك الحصول على أقراص الدكتور «بولارد» لإنجاب الذكور. إنها تباع

حالياً في صيدليات لندن، ولمّا تصل إلى ازدخانات بلادنا بعد.

وانصرف إسماعيل دون أن يترك أثراً.

* * *

التدخين ممنوع داخل الغرفة، لذلك استأذن الأب الكئيب حماته بالخروج، ظنّاً منه أن زفرات الدخان ستمكّنه من لفظ همومه والأوهام. وما كاد يضع قدمه خارج الباب حتى دوى صوت الممرّضة من جديد، لكنها لم تبشّر بالإناث هذه المرة، بل جاءت تدعو الراغبين إلى رؤية أطفالهم.

إستجاب للنداء بشكل عفوي، دون رغبةٍ حقيقية أو دافع وجيه. وراح بحماس قليل، يفتش بين المهود الصغيرة عن مهد حزنه وشقائه. ولما ظهر له رقم زوجته تقدّم، وإذا بطفلةٍ مغمضة العينين، يتقطّر جمالها خجلاً وحياءً، وترتجف براءة كأنها شاعرة بالذنب إذ كانت أنثى! وتظهر عليها مسحة من الهلع كأنها تخشى مقابلة أبيها لما سبّبته له من المتاعب، وتريد أن تتحمّل بمفردها المسؤولية كلّها، فأسلمت نفسها، ووضعت روحها وحياتها ومصيرها بين يديه.

في تلك اللحظات العصيبة، شَعَّ في صدره نور **الأبوّة**، وشعر بخساسة ما كان قد فكّر به أو توهّم، عفواً أو قصداً وعمداً. فأحنى رأسه معتذراً، شاكراً ربّه على ما وهب، خاشعاً له، **يصلّي للحب، للطهر، وللبراءة.**

المقالة الثانية

عندما لا يستحي الجبناء

عندما لا يستحي الجبناء(١)

ما إن بُحّت حنجرة المنادي، صائحاً معلناً قدوم موكب الاستسلام، حتى انحشرت جموع الضائعين التائهين، مع من اندسّ في صفوفهم من أهل النفاق، يلبسون براذعهم، ويجعلون من أنفسهم طوعاً، أو كرهاً وجهلاً، حميراً يركبها السلم ليعبر فوقها إلى الشاطىء الأمين.

وانتظروا طويلاً حتى يصل السلم، فإذا بالحرب تداهمهم قبل مغيب الشمس بقليل، فاختبأوا خلف أصابعهم، منهم من قضى، ومنهم من ينتظر. مصيبتهم أن الشمس ضاقت بهم ذرعاً فهمّت بالأفول. ولم يبق لأفولها إلاّ شبران أو ثلاثة في عرض الأفق، لذلك تسمّرت عيونهم في حبالها، يشدّونها بعينٍ ويرخونها بأخرى، وهي

(١) لقد كُتِبت هذه المقالة في حينه بأسلوب كلاسيكي جميل، وتحت عنوان آخر مختلف. وأرسلت إلى إحدى المجلات لنشرها، فلم تنشر؛ لأن ميزة تلك الفترة كانت صرعة الرمزية، والشعر الحديث غير المفهوم أحياناً حتى من قِبل صانعه. لذلك أعيدت صياغتها تحت هذا العنوان الجديد، وبهذا الأسلوب المميّز، نكاية بصرعة المحدثين، وأرسلت إلى «السفير» فنشرت في اليوم نفسه (الخميس في ١٩٧٩/٣/٢٩) وهي كُتبت على أثر جريمة اغتيالٍ حدثت أمام ناظِرَيْنا.

تحملق بهم مستاءة مشمئزة، فيخجلون. ثم يدسّون رؤوسهم بين أقدامهم وينامون. ثم يتذكّرون أن لهم أعضاء فيحاولون تفحصها، ويسترسلون. ثم يرفعون أقفيتهم عن الأرض ويضعونها على بلاط منشور في ساحة القرية، من بقايا القبور الدوارس، التي تعبت حجارتها من كثرة الرصف، فما أن تسللت إلى زوايا الساحة لتستريح، حتى انقضّوا عليها يعانقونها، يلفّونها بذراع ويمسكون شعاع الشمس بأخرى، فلا البلاط غدا نعاماً، ولا صارت أشعة الشمس مشانق. وما بين المشنقة والنعامة، ظل الموت حذراً ولم يتسلل.

قال بعضهم: كيف سيأتي الموت ونحن عنه غافلون. وقال البعض لن يأتي ونحن عنه غافلون. وقال آخرون قد يأتي ولسنا غافلين. وفجأة، اهتزّت بمن عليها، وسُمع دويّ جنوبيٌّ عظيم. حدّقوا بأنفسهم، تفقّدوها، فإذا بهم أحياء يرزقون. وفي تلك اللحظة كانوا قد أغفلوا الشمس، فهبّوا يتفقدونها. وإذا بتنّين البحر يغازلها، فاحمرّت خجلاً ولم تمانع. توسلوا إليها فما تجاوبت، حينئذٍ شدُّوا رحالهم واتجهوا صوب المقابر.

كان الطريق خالياً، إلاّ من بومٍ وعقربٍ وصرصور. فهرولوا لكسب الوقت، وإذا بهم مع ضرب نعالهم بالأرض يقفزون. ها هم يرقصون، وأذيال سراويلهم تلعلع وهم يصيحون: **بالصلح نحيا وبالتوقيع ننسجم**. . . ولم يَطُلْ بهم رقصهم حتى سكروا، وإذا بدابتين مسرعتين كالبرق تمرّان. ظنوهما تتسابقان، فأفسحوا! لكنه كان عراكاً، شبه حرب، وربما تمثيليّة خسيسة. صمتوا، تسمّروا في أماكنهم، انشدهت عيونهم، نسوا الشمس والمقبرة والنعامة، وحاولوا إنهاء حالة الحرب فكانوا متخلّفين. وأُطلقت قبل وصولهم رصاصات

ثلاث؛ اقتربوا، فإذا بتهمة الخيانة مضرّجة بدمها تشخر شخرة الموت الأخيرة، وإذا بالعهر يقتلها ويُدْبِر. لقد ولّى هارباً قبل أن يمسكوا به، فاختلط حابل القوم بنابلهم، واختفى المقتول وجفت دماؤه، وفتشوا عن القاتل فلم يتعرّف إليه أحد. عندها، نكّست الجموع رؤوسها، وأغمضت عيونها، وجرّت أقدامها المتثاقلة، وسارت في الموكب الجنائزي، وهي تحلم أنها راكبة سفينة على شكل حصان أبيض، يسير فتلتوي على جنبيه أغصان الزيتون!

مشوا طويلاً طويلاً، وإذا بهم في زوايا الساحة من جديدٍ يدورون. لقد نسوا المقبرة واستسلموا للنوم العميق، فلفّتهم نعامة سوداء بريشها المخمل، واسترسلوا في سبات عميق. وما كادوا يبلغون الحلم، حتى هبّوا من نومهم هلعين. إنها الحرب حقيقة هذه المرّة، تصل إليهم بلا طريق. تسير فوق الغيم، تجتاز كثبان الصحاري، تحملها الريح، تبرق وترعد، فتمطر موتاً وخراباً. انتظروا قسراً وقهراً وهم يدسّون رؤوسهم بين أقدامهم، ويتفقدون أعضاءهم ويلهثون، حتى إذا انشق الفجر، وهدأت الحرب، هبّوا إلى المقابر يركضون. ولكم صعقوا عندما وجدوا القبور قد تبعثرت. وتساءل بعضهم: أهرب الأموات الجبناء؟ فأجاب آخرون: عار علينا أن نسيء الظن بهم قبل بعثهم، فلعلّهم يخوضون الحرب عنّا! لقد تقزّمنا تعباً وخوفاً، ألا يكفي أنّا من البائسين؟

وبينما هم في غفلةٍ من أمرهم وذهان، شعّ من السماء نور ساطع ومضيء. قالوا من أنت، أمن الجِنّة أم من الناس؟ قال **أنا الشهيد!** قالوا أَوَ لَمْ تَمُتْ؟ قال: بل أنتم المائتون. قالوا: وما عسانا

فاعلين؟ قال: انزعوا براذعكم، أقلعوا عن جبنكم، شموا رائحة البطولة وأمسكوا بخناق الموت. وإلاّ... فارفعوا أصواتكم بالحقّ، **قولوا الحقّ**.. الحق... ربما كفاكم هذا القول شرف البطولة، ولن يكون لشمسكم بعد اليوم من مغيب.

المقالة الثالثة

الحرية وهم
كم يصعب أن ننعتق

الحريــــة وهـــم
كم يصعب أن ننعتق[1]

نعمتان مجهولتان: الصحّة والأمان.

نضيف إليهما نعمةً ثالثةً منسية: إنها الحريّة!

وانقسم الناس عبر التاريخ كلّه إلى فريقين: فريق القائلين **بحرية الإنسان المطلقة**، وباختياره الحرّ لصفاته وأفعاله؛ وفريق القائلين **بالجبر المطلق**، أو القضاء والقدر.

قالت المعتزلة: **إن الإنسان حرّ خالقٌ لأفعاله**، وهو المسؤول عنها، وإلاّ فما الحكمة من فرض الثواب والعقاب؟.

وقال أفلاطون: **نحن نختار الحياة التي نريدها**.

وقال كانط: الحتمية ظاهرية فقط في حياة الإنسان، **والذات الإنسانية الحقيقية هي الذّات الحرّة**.

وقال آلِن: شخصيتك هي قسمك، **وأنت نتيجة ما صمّمت أن تكون**.

---

(١) بعد نشرها في صحيفة النهار في ٢٩/٤/١٩٧٩، أعيد توسيع وتفصيل هذه المقالة وجعلت فصلاً من فصول كتابنا «الفلسفة ومشكلات الإنسان» الذي نشر العام ١٩٩٠. لذلك فإننا لن نوردها كاملة هنا، بل سنختار من فقراتها الأجمل والأهم.

وقال جان بول سارتر: ليس مصيرنا سوى التعبير عن قصدنا وعزمنا **وتطلّعاتنا الحرّة**.

وفي مقابل هؤلاء، قالت الجبريّة: إن الإنسان مسيّر بحيث لا يعدو كونه **ريشة في مهبّ الريح**.

وقال الغزالي: الله هو الذي يفعل ما يشاء، كيف يشاء، وساعة يشاء، وكل شيءٍ بقدرته تعالى جائز ممكن.

وقال شوبنهاور: **لا أحد منّا يختار طباعه وميزاته** الأساسيّة الثابتة، فلا يعقل أن يختار أحدنا أن يكون خبيثاً أو ضعيفاً أو غبياً. ومن شبّ على شيءٍ شاب عليه.

***

باستطاعة أي واحدٍ منّا أن يطرح على نفسه السؤال التالي: هل أنا حرّ حقاً في كل تصرّفاتي وأفعالي وميولي؟ هل باستطاعتي فعلاً أن أحقّق ما أرغب فيه وما أصبو إليه؟ **مخيّرون نحن أم مسيّرون؟**

الجواب لا يكون ارتجالاً، بل بوضع الشخصية البشرية على المشرحة، وتفحّصها تفحّصاً دقيقاً، انطلاقاً من مبدأ **ثنائية النفس والجسد**.

وفقاً لهذه الثنائية، تنقسم المكوّنات الأساسيّة للشخصية البشرية إلى قسمين:

١ ــ المكوّنات الجسديّة والفيزيولوجية.

٢ ــ المكوّنات النفسية والاجتماعية.

ومن حيث المبدأ، فإن جميع المكونات الفيزيولوجية لشخصيتنا

حتمية. ولا دخل لنا في اختيار شيء منها على الإطلاق:

أ ـ **فلا أحد منا يختار والديه،** اللذين يفرضان عليه معطياتٍ وراثية ثابتة ومحدّدة.

ب ـ إننا لا نَرِثُ شكل الوجه والقوام فقط، **بل نرث المزاج والطباع الثابتة إلى حدٍّ بعيد.** ومهما يطرأ على هذه الطباع من تعديل وتكيّف، فإنها تظل تحتفظ بطابعها العام، فنميّز بسهولة عصبي المزاج من هادىء الطبع، والنشيط الدموي من الخامل، أو الحالم، أو الغضوب، أو الكئيب أو غيرهم من النماذج.

ج ـ ولا أحد منا يختار **مكان ولادته أو زمانها،** ولا محيطه الجغرافي والاجتماعي، أو الانتماء التراثي، الذي ينشأ فيه ويُفرض عليه.

في هذا المحيط تتحدّد معالم الشخصية الاجتماعية للفرد، وتتلخّص مؤثراتها في:

أ ـ التأثير العائلي: وهو الأوّل والأهم، فالطفل يكتسب من ذويه طرائق المأكل والمشرب والظهور، وأغلب العادات الجسدية والنفسية والفكرية والانفعالية. إن طريقة إرضاع الطفل، وتنويمه، وتلبية حاجاته ومطالبه، لها أكبر الأثر في تحديد سلوكه العام. لذلك قيل: «**إن مقامط السرير هي كفن الشخصية**».

ب ـ يلي التأثير العائلي **تأثير البيئة،** لا سيما المدرسة، والشارع، والمحيط الريفي أو المدني، والنوادي، والتجمعات أو التنظيمات أو الهيئات المختلفة التي ينتمي إليها الولد، من كشفيةٍ أو سياسية، إضافة إلى وسائل الإعلام والبرامج المتنوعة.

ج - يضاف إلى هذين النوعين من المؤثرات، **سيرة الحياة الخاصة بكل فرد**، وما تشتمل عليه من أحداث وصدمات، ومن الرغبات الظاهرة أو المكبوتة، والجنسي منها بنوع خاص، وما ينتج عن ذلك من العقد النفسية والانحرافات المرضيّة. فكم من مجرم قاتل، أو لصٍ قاطع طريق، انحتم عليه سلوكه هذا نتيجة دوافع خبيئة لا يعيها هو نفسه.

إن دور الطفولة في تحديد الشخصية هام وكبير. فلو زرعت حبة قمح لا تعطيك سوى نبتة قمح. بينما الزؤانة لا تعطي سوى زؤانة. هكذا الطفل، **بِخَلْقِه وخُلُقِه**، ينمو ويكبر وينتج رجلاً، هو الطفل ذاته الذي كبرت معالمه ونضجت مكامنه. وبناء عليه أطلق الشاعر الرومانسي الإنكليزي «وُرز وُرث» مقولته الشهيرة: **«الطفل هو أبو الرجل»**.

نستخلص من ذلك كلّه، أن سلوك الفرد محتوم عليه، تحدّده دوافع ظاهرة أو باطنة، عندما نبحث عنها نجدها. فلكل فعل من أفعالنا سبب يقتضيه، ولا يمكن لمسبَّبٍ إلاّ أن يرتبط بسبب، ولا لمعلول إلاّ أن يرتبط بعلّة. فلا نكون لذلك مختارين لأفعالنا، بل تكون جميع هذه الأفعال محتومة علينا بدوافعها وأسبابها، الوراثي منها، أو الطفولي، أو الاجتماعي، أو البيئوي العارض، فلا نكون أحراراً!

خير دليل على ذلك، القصّة الحقيقية للعامل المغدور **«أبو هاشم»**. كان على بساطته يرى أن لا خيار له في شيءٍ مما يفعل. لقد ورث مهنة الخياطة عن والده، حيث لم يكمل علومه ولا حصل على

وظيفة. كان دأبه كل يوم أن يركب «الأوتوبيس» قاصداً معملاً للنسيج والحياكة. كان مقيداً بالوصول عند الساعة الثامنة صباحاً، وبالعودة عند الرابعة بعد الظهر. كان ملزماً أثناء الدوام بعملٍ آلي ميكانيكي على الوتيرة نفسها. وكان مطلوباً منه أن يسكت ويتحمّل كل أنواع النقد حتى الشتم والإهانة. وعندما اندلعت نار الحرب الأهلية في لبنان، أصبح خاضعاً بصورة أشد، في ذهابه وإيابه، لأحكام الطرق إن كانت سالكة وآمنة، أو حذرة ومقطوعة. كما لأحكام أيام السبت إن كانت **سوداً أو بيضاً**[١].

ومع اشتداد الأزمة أقفل المصنع أبوابه، وخرج «أبو هاشم» صباح اليوم التالي ليجد نفسه **حراً طليقاً** (كما توهّم)، غير مقيّد بتوقيت، ولا بركوب أوتوبيسٍ أو تكسي، ولا بعبور شارع جبراً، أو جسر، ولا بالامتثال لأوامر المشرفين الفنيين وأرباب العمل. إنه اليوم حرٌ تماماً، يفعل ما يشاء، ويذهب أين يشاء. وامتطى صهوة حريته ومشى؛ لكن التعيس البائس، ولضرورة ما، ولج مجال رماية قنّاصٍ ماهر محترف، فأرداه قتيلاً بطلقة! لقد أحسّ «أبو هاشم» أنه حر في كل شيء، لكنه غاب عنه أنه لم يكن حراً في شيءٍ واحد يلغي حريته في كل شيء: **إنه لم يكن حراً في أن يعيش**.

هذه قصة واقعية تنقض بفحواها كل إقرار بالحرية. وتبقى المشكلة، ويبقى السؤال مطروحاً: ألا يوجد **فعل مجاني** يمكن للإنسان أن يفعله بكامل حريته، غير مربوطٍ بدافع أو محكومٍ بسبب؟

---

(١) أطلق اسم «السبت الأسود» على أحد أيام السبت الذي حصلت فيه مجازر رهيبة في لبنان العام ١٩٧٦.

يُحكى أن مسافراً في قطار، تنبّه في سفره لوجوده في حجرةٍ واحدةٍ مع رجل عجوز ضعيف. تأمّله، فإذا به يغفو على مقعده إلى جانب الباب تماماً. وفكّر المسافر اللعين في نفسه: ماذا يلزم لدفع هذا العجوز خارجاً؟ دفعة قدم واحدة، تجعله تحت العجلات، فيرى كيف تنطحن عظامه دون أن يعلم به أحد.

تردّد هنيهة ثم قال: سأعدّ من واحدٍ إلى عشرة، فإن رأيت ناراً في الغابة تركت العجوز وشأنه. وإن لم أر ناراً، دفعت به خارجاً. وشرع في العدّ، بلغ الثمانية... تسعة... عشرة... لم يَرَ شيئاً، **وإذا بالعجوز بين العجلة والخط الحديد!**.

فهل هذا فعل مجانيّ حر، أراده صاحبه بملء حريته دون دافعٍ أو سبب؟

الحقيقة أن لهذا الفعل دافعاً، **إنها الرغبة في القتل**، وهي رغبة مَرَضيّة لا شعورية، تكمن أسبابها في نفس الفاعل، في اللاوعي عنده، ولا يصعب على المحلِّل النفساني إظهارها والكشف عنها.

إن القول بوجود أفعالٍ إنسانية مجانية (بلا دافعٍ يقتضيها) تتمثَّل فيها حريتنا المطلقة، مثل أن نفعل ما نشاء ساعة نشاء، كأن نأكل، أو نشرب، أو نُقدِم، أو نُحجِم، أو نريد أو لا نريد، وكل ذلك بإرادتنا وحريتنا واختيارنا دون أي قيد أو شرط؛ **هو قول مرفوض**. والحقيقة أن كل أفعالنا مشروطة، حتى لو كان الشرط إثبات المقدرة على الفعل.

إن القبول بالمجانية في الأفعال، يذكّرنا **بطرفة الحمار** الجائع والعطشان. أمام ذلك الحمار، وعلى مسافتين متساويتين منه يوجد ماء

وعلف. وله ملء الحرية في أن يأكل أولاً أو يشرب. وحيث انتفى لديه الدافع الذي يرجِّح توجّهه إلى الأكل قبل الشرب، أو الشرب قبل الأكل، فقد ظل متردداً بينهما حتى مات جوعاً وعطشاً دون أن يستطيع الاختيار في أيهما يبدأ.

الحقيقة أن الفعل المجّاني، غير المرتبط بأية حتمية أو ضرورة، **غير موجود**. وما نراه أو نعتقده مجانياً يكون بسبب جهلنا للدوافع والأسباب. ووضع الجاهل بأسباب فعله كوضع السكير الذي في حال سكره يهذي على هواه، لكنه حين يستفيق من حالته يعيها ويندم.

خلاصة القول إن شخصيتنا خاضعة دائماً **لأحكام الضرورة**، من الموجبات الوراثية والمكانية والزمانية: وإن كل فعل نفعله له دافع يوجب حصوله.

فهل يعني ذلك أن **الحرية وهم**؟

نعم إذا ما كشفنا عن كل ما نرزح تحته من **قيود**، وعن كل ما تمليه علينا ضرورات الطبيعة والوجود.

ولكن ماذا يبقى للإنسان إذا ذهبت حريته؟ وما الذي يعود يميِّزه من أي حيوان آخر، عبدٍ لحاجاته وغرائزه؟

إذا سُلِبَتْ حرية الإنسان منه، بالمفهوم الماورائي غير المرتكز على قاعدةٍ علمية أو موضوعية، سوى التخيّل والتوهّم القائمين على الجهل بالوقائع؛ فلا أسف على تلك الحرية.

أما إذا نظرنا إلى الإنسان بمنظار الواقع والطبيعة الإنسانية، فإننا نرى أن بإمكانه أن يكون حراً فعلاً. وذلك ليس بحريةٍ وهمية مفارقة للطبيعة الإنسانية، إنما بحرية واقعية ترقص أنغامها على أوتار الضرورة

والحتمية. إن بإمكان الإنسان أن **يتحرّر من قيوده**، وحريته تكون في تحريره منها، **وأساس التحرير الوعي**.

عندما أعي نفسي، صفاتي وميزاتي ومزاجي وجميع إمكاناتي، وكل ما عندي من الطاقات المتواضعة أو الفذّة، عندما أعي ذلك كله **أعرف نفسي**. وعندما أعرف نفسي أخطو أول خطوة على طريق استعادة الحرية. أرى القيد فأحاول كسره والتحرّر منه. وأرى الضرورة والحتمية فأنحرف عنهما أو أركب غمارهما. **كلما عرفت نفسي أكثر كلما تحررت أكثر**. وكلما عرفت كوامن الماضي السلبية، التي تحدد سلوكي الحاضر، كلما تخليت عن ذلك الماضي، فلا أبقى أسير حتميته. إن باستطاعة كل واحدٍ منّا إذا وعى نفسه وعرف ميزاته، أن يستغل تلك الميزات ويكون حراً بتوجيهها الوجهة التي تناسبها. فالإنفعالي يتحرر من انفعاليته عندما يستخدمها للإبداع الفني. والغضوب يمكن أن تتوفّر فيه صفات الزعامة والقيادة. والخامل مؤهّل للوقوف على خشبة المسرح والبراعة في التمثيل.

عندما نتعرّف إلى ظواهر الطبيعة، وندرك حتمية قوانينها، لا نعود خاضعين لتلك القوانين خضوع القاصر الضعيف. بل يصبح باستطاعتنا استغلالها واستعمالها. وبدل أن تكون أداة إخضاع تصبح وسيلة لسدّ الحاجة أو لتطوير طرائق المعاش. **إن الظاهرة التي نجهل قوانينها تقيّدنا**، في حين أن الظاهرة التي نكتشف قوانينها نستغلّها لمصلحتنا. وباستغلالنا لها نتحرّر منها. هكذا ترى الإنسان يركب الطائرة ويسيّرها بقوة الهواء ضد السقوط فيه. كما يركب السفينة ويسيّرها بقوة الماء ضد الغرق فيه.

أين التوهّم إذاً من الحقيقة؟

ـ نقرّ أوّلاً، **أن الحرية ليست سلوكاً، فردياً أو اجتماعياً.** إنما هي **الشعور** الناتج عن هذا السلوك، أو المواكب له. ولا يمكن للإحساس بالحرية إلاّ أن يرتبط بوضعٍ أو بحالة. وللإحساس بالحرية علاقة وثيقة بالرغبات والميول، لدرجة أن شخصاً ما، قد يرى حريته ويعيشها في القيد الذي يقيّده، عندما يرتبط ذلك القيد بإشباع رغبةٍ جامحةٍ أو بتلبية مطلبٍ مُلحّ؛ كالعاشق المتيّم، الذي يقيّده حب امرأة، ومع ذلك فهو يعيش حالة الهوى، ويجد حريته في قيدها. أوْ كالبخيل الذي تقيّده ثروته، ومع ذلك فهو يعيش حريته عندما يعدو خلف أمواله، وهو في الحقيقة عبد لهذه الأموال.

ـ ونقر ثانية، **بأن أساس الحرية الوعي**، إضافة إلى الشعور **بالقوة والإحساس بالنجاح.**

نحن نشعر بالحرية كلما شعرنا بالقوة وأحسسنا بالمقدرة وحقَّقنا نجاحاً. بينما يزول ذلك الشعور، فنحس بالقيود تكبّلنا كلما كنا **ضعفاء، فاشلين وعجّزاً.**

ولكي يشعر الإنسان بحريته، كخيّال يرتع في ميدان الحرية، عليه أن يجتاز حاجزين اثنين:

أ ـ الحاجز الأوّل، ويتكوّن من مجموعة **الجوازم والحتميات الشخصية والطبيعية.** وفي اجتياز هذا الحاجز يسجّل انتصاراً على نفسه وتفوّقاً على الطبيعة.

ب ـ الحاجز الثاني، ويتكوّن من مجموعة **الجوازم والحتميات الاجتماعية**، وهو الحاجز الأصعب والأهمّ.

يبدأ الشعور بالحرية مع الإمساك بزمام الجوازم والحتميات الشخصية والطبيعية، فيسيطر الإنسان على نفسه وعلى الطبيعة، ويعي حدوده بمقدراته وإمكاناته. حتى إذا ما تحقق له ذلك، استقوى به واستعمله سلاحاً بيده لمواجهة باقي المعوقات، من الجوازم والحتميات الاجتماعية، بهدف النجاح، أو التفوّق، أو الانتصار والسيطرة.

إن ما ينطبق في هذا المجال على الأفراد ينسحب على المجتمعات والدول. ويبقى موضوع الحرية موضوعاً إنسانياً صرفاً، لارتباطه بمسألتي الوعي والمسؤولية. وتبقى الحرية **هاجس الإنسان** في حياته ومماته، في دنياه وفي آخرته.

المقالة الرابعة

مريام وزوجتي وأنا
لعبة القذائف
تبعثرنا كالقرميد

مريـــام وزوجتـي وأنـــــا

لعبة القذائف تبعثرنا كالقرميد[1]

نحن الجنوبيين، نخبركم يا أهل الأرض والإنسانية، أننا مللنا لعبة **«الورق»** و**«الزهر»** و**«البرجيس»**. . . لقد أصبحت هذه الألعاب عندنا حافية، فسبقناكم حداثةً، واهتدينا إلى لعبة أكثر جراة وأقلّ طرافة. لكننا لن نستطيع تعليمكم إيّاها وأنتم بعيدون عنّا؛ وذلك ليس بخلاً أو احتكاراً فالعربان كرام، ولا ترفّعاً أو عنصرية، فأرباب الحضارة والتمدّن ليسوا عنصريّين. ولكنّها لعبة أشبه ما تكون بالمسرح الكلاسيكي الذي يعتمد وحدة المكان، **فلعبتنا لبنانية جنوبية محض**.

أما تعلّمها عندنا فليس عقدة كعقدة تعلّم اللغة الأجنبية، ولا يستدعي برمجة على الطريقة الأميركية من كبار المعلّمين، أمثال جون ديوي وهربرت سبنسر وغيرهما؛ إذ يكفي لإتقانها تجربتان أو ثلاث.

إنها لعبة خلافاً لكل مألوف، لا تجري في أوقات اللهو والفراغ وحسب، إنما في كل وقت وزمان. فأحياناً نمسك عن الطعام لنلعب، وقد نهبّ من نومنا لنلعب، أو نستيقظ باكراً أو نسهر طويلاً لنلعب،

---

(١) المقالة عبارة عن وصف حي، لفصل من فصول المأساة التي يعانيها لبنان الجنوبي منذ أوائل السبعينات، وما يزال. نشرتها جريدة النهار الزاهرة في ٥/ ٦/ ١٩٧٩م.

ونحشر أنفسنا في الدهاليز والمطابخ والحمّامات وتحت الأدراج لنلعب. وقد نلتجىء إلى الأقبية والزرائب أيضاً لنلعب.

لعبتنا غريبة عجيبة، يفترض بلاعبها أن يكون مرهف السمع وبه صَمَمٌ في آنٍ. أن يكون أعمى وحادّ البصر في آنٍ. وأن يكون عنترة العبسي شجاعة وأجبن من صرصور في آنٍ!.

إنّا نخبركم صادقين، أن لعبتنا قد مارستها عندنا الأنعام، وكل الدواجن التي ناضلت وتناضل معنا من أجل الصمود. لكنها مسكينة تلك الحيوانات، فإنها إذا فُرضت عليها تلك اللعبة، وهي لا تمتلك حماماً أو دهليزاً أو «تحت درج»، تهيم على وجوهها، رافعة أذيالها وآذانها، والعبقري منها من يدس رأسه تحت صخرة أو يخفي جسده في جذع زيتونة معمِّرة. هذا ما رواه جارنا **«المعّاز»**، والغصّة تخنقه؛ فقد آلمه أن يرى **«الكرّاز»** تُذِلّه اللعبة فيتخلّى عن قيادة القطيع تائهاً، وأن يرى كلبه الشرس أجبن من كلب، تداهمه اللعبة فيعوي عواءً شديداً ويمرّغ أنفه في التراب.

نظنكم الآن قد عرفتم لعبتنا ولا حرج علينا في تسميتها: **إنها لعبة القذائف**، ونسميها لعبة القصف، وقد اصطلح البعض على تسميتها بلعبة **«طَلَعَتْ»**. والعبرة ليست في التسمية، إنما فيما ينتج عنها من الفعل والانفعال، لذلك نروي لكم فصلاً من فصولها أو بعض فصل.

كانت الشمس قرصاً أحمر ابتلع الحوت ثلاثة أرباعه وبقي الربع. وكنا نجلس على الشرفة نودّع مع حمرة الشمس حمرة قرميد الضيعة، معتبرين هشاشة القرميد رمزاً **لوداعة ابن الريف**، واحمراره رمزاً لكل **تضحية وفداء**.

وفجأة، أزّ في جنوب الجنوب مدفع! لم يكن مدفع الإفطار طبعاً، لأنها المرة المليون. فصرخت في وجه زوجتي: «**طَلَعَتْ**». وفاعل طلعت كان ضميراً مستتراً نائبه قذيفة من عيار «١٥٥»، وتقديره النبي موسى، أو من ينوب عنه، كفرعون مصر، أو ملك حِمْيَر أو سبأ. وكوني ضعيفاً في قواعد اللغة فقد ظننت أن «طلعت» هو فعل الشرط، واعتبرت جوابه «وَصَلَتْ»، **وما بين طَلَعَتْ ووَصَلَتْ تمتد مسافات الحياة كلّها.**

تركت زوجتي كل شيء، دون أن تعرف أين تتجه، فرأيت في ذعرها ذعر كل أمّهات الجنوب. والتفتّ فإذا بطفلتي البريئة ما زالت تلتهم حليب راضعتها. قلت لها مؤكداً محتدّاً: **طلعت يا مريام!** فضحكت ولم تفهم. عندئذٍ انتزعتها من راضعتها واتجهت بها صوب الحمام، المكان الأكثر أمناً داخل المنزل، فأدركتُ زوجتي في إحدى زواياه. دَسَسْنا رؤوسنا في قعر الزاوية ورحنا نعدّ من واحد إلى عشرة، تلك هي **المسافة الفاصلة بين الموت والحياة.**

القصد من العدّ إدراك مرحلة جديدة من مراحل اللعبة أضفناها بالمراس. إنها مرحلة «**قَدُمَتْ**»، التي تسبق مرحلة «**وَصَلَتْ**»، وعلامتها دائماً «**زَمْجَرَتْ**». وبانتظار القدوم حبسنا الأنفاس، وجعلنا آذاننا في أشد حالات الإرهاف، وأصابعنا في أشد حالات التأهّب، لكي نجعل في كل أذنٍ إصبعاً في الوقت المناسب. إذ أن مرحلة الزمجرة هي من أشد مراحل التوتر والانفعال. فإن سُمِعت الزمجرة فذلك يعني برداً وسلاماً على سامعها، لأنها عندما تنقضّ على نفسٍ تكون قد زمجرت الأخرى، هكذا شأن الحرب، وشأن السياسة.

كان وضعنا الدراماتيكي في أن «**مريام**» لم تمتثل لقواعد اللعبة، لم تعدّ، لم ترهف سمعها ولم تتأهّب للقدوم، بل راحت **تناغي**، مجسدة براءة الأطفال كلها. صرخت فيها: «لا مجال للهزل، ففي اللعبة موت أو حياة». فما فهمت ولا امتثلت، وأفسدت علينا لعبتنا فضيّعنا مراحلها. وإذا **بدويٍّ** يمزّق ظهر الأرض، ويوزّع على الجوار شتاتها!

وهدأت بعد قليل. تفقدنا أنفسنا فإذا بنا أيضاً أحياء. استعدنا شهيقنا وزفيرنا وخرجنا إلى الشرفة نتفقّد، **وإذا بالقرميد الأحمر قد تبعثر**، وغيوم الدخان الأسود تلبّد السماء حزناً، وعويل يسابق العاصفة من كل جهة. وإذا بأطفال ونساء وكهول، قد أمسوا بلا عيون، بلا أطراف، بلا وجوه!

لم تكن المواجهات في تلك اللعبة تتم بين الخصوم، فكانت تسفك عن بعيد دماء الأبرياء، دون أن يحرك **الضمير العالمي**، لا محركٌ يتحرّك ولا محرّكٌ لا يتحرّك. فترحّمنا على الأزمنة الغابرة والأيّام الخوالي، على حرب السيوف والنّبال، يوم كان الخصم يواجه خصمه، والعدو عدوه، **ويوم كانت البقرة تنطح البقرة**.

المقالة الخامسة

عقل ضائع في اسطنبول

عقلٌ ضائعٌ في اسطنبول(1)

لولا متعتي العظيمة، وأنا تلفح وجهي وتُبعثر ما تبقى من شعر رأسي، أنسمة بحر مرمرة على أكتاف مضائق البوسفور والدردنيل؛ لولا متعتي ونشوتي اللتان مددتهما جسراً يصل قلبي بأحفاد الحكم العثماني، لصرخت وأنا أدخل المكتبة السليمانية العظيمة، وأرى بأمّ العين كنوز التراث العربي ودُرَرَه، صرخة البدوي المغامر: «**عليهم يا عرب**»!

كنت أتصوّر نفسي وأنا فوق الغيوم، في طريقي إلى بلاد الأناضول، حزيناً، ممقوتاً يائساً، وقد عزّ عليّ وحزّ في نفسي أن أخرج من ساحة الحرب اللبنانيّة، باحثاً، ربما عبثاً، عن مخطوط قديم لأحد الفلاسفة الغابرين. كنت مهموماً أفكّر وأراهن، أتصوّر الطريقة التي سأحمل بها إخواني الأتراك على فك أسر ذلك المخطوط إن وجد. بأية لغةٍ سأخاطبهم؟ هل ستشفع عندهم قناني العطر، أو علب

(1) من وحي رحلتي إلى اسطنبول العام ١٩٧٩، للحصول على مخطوط «تهافت الفلاسفة» للمولى علاء الدين علي الطوسي الذي كان موضوعاً لأطروحة الدكتوراه. نشرتها النهار في ٧/١٠/١٩٧٩.

السجائر الفخمة، أو روائح البن البرازيلي الطازج، أم غير ذلك من الهدايا؟ أم أنني سأتلوى جوعاً أمام مائدةٍ قد لا يُسمح لي بالجلوس إليها؟

واستمر قلقي ممزوجاً بباعِثَيْ الخوف والأمل، وخُيِّلت لي الأوراق الذهبية الصُفر، وتعرّجات الخطوط الكوفية والفارسية، فَخِفْتُ أن أرى ذلك كله مجرد رؤيا، لأعود أدراجي مرغماً إلى نسخةٍ مبتذلة حصلت عليها مصوّرة من معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية البالغة الوقار والتقدير، أين منها آثار **أصابع الدجاج في الزقاق الموحل!**

ودخلت في اسطنبول، وما تجرأت على أكثر من صرخة عتبٍ من الأعماق، على أصحاب الحلّ والربط عندنا، في عالمنا العربي، الذين ارتضوا تخزين تراث شعبهم، لا بل فكره وعقله، بلا جدوى، في متاحف الأتراك والفرس والهنود والإنكليز.

ودخلت في اسطنبول، ونفسي تجيش غضباً، وشعوراً بالخوف من أن أكون قد ركبت الآفاق عبثاً. ووددت لو تفتح المكتبات التي أقصدها أبوابها ليلاً كي أدهمها وأرى حظي معها. لكنني كبحت جماح ثورتي بانتظار الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي. فولجت شوارع المدينة ورحت أتعرّف أحفاد العثمانيين.

أوّل ما يطالع عينيك في بعض الشوارع المزدحمة الغاصّة بالمارّة، عربات بيع الفواكه والخضار، وإلى جانبها أكوام قاذورات لا تطاق، وكأن تركيا تدير ظهرها لجاراتها الأوروبيّات! وأوّل ما يخدش أذنيك أصوات باعةٍ ينادونك بالعربية «**تعال حجّي**». فتلفتُّ وفهمت أن

المقصود بالمناداة المصطافون الكُثر من الأخوة العراقيين. ولم أتوقف كثيراً عند قشور البطيخ المرمية بين الأقدام، وما يتنزه فوقها بحرية من الذباب الأزرق السمين. وتناسيت كل هذه المظاهر، وشخصت إلى المدينة التاريخية العظيمة، التي يلفّها بعض السواد لشدة ما عانت من التاريخ. إن بصمات أصابع القرون الوسطى، وما قبلها وما بعدها، ظاهرة تقريباً في كل شارع وعلى جدران كل بناء.

ونسيت المخطوطات! ورحت أحيّي عظمة «**السلطان أحمد**» و«**فاتح**» و«**السليمانية**» و«**نور عثمانية**» و«**آيا صوفيا**»، وغيرها وغيرها من الجوامع المدهشة الرائعة، التي لا تقلّ فناً وعظمةً وجمالاً عن «**نوتردام**» و«**البانتيون**» وغيرها وما شابهها من التحف الخالدة التي يمجّدها الأوروبيّون.

وشعرت من خلال هذه العظائم، بمشاعر الودّ والمحبة تربطني بالأخوة الأتراك؛ لكني قبل أن أبدأ باستساغة حركاتهم وإشاراتهم إذ كنت لا أفهم أحاديثهم، وقبل أن أستطيب مآكلهم وأفضي بشهادة تقدير **للمطبخ التركي الشهي**، أوقفت تنفيذ مشاعري إلى حين ما سيجري لقضية المخطوط.

ودخلت في السليمانية، أبحث في حرف التاء. يا إلهي، إنه موجود، وغيره كثير موجود. كل ما تطلبه موجود. هنا الكثير الكثير، فكيف بباقي حروف الأبجدية؟ تعالوا أيها العرب. أنظروا هٰذي كنوزكم. صحيح أنها في أيدٍ أمينة، ولكن لا أحد يستفيد منها هنا. استعيدوها! **أعطوا الأتراك مالاً ونفطاً وخذوا التراث.**

تصورت أن صوتي قد بُحّ من شدة الصراخ، فتنبهت لشرودي

وتخيلاتي، وشعرت بهدوء السليمانية يلفني ويغمرني، فشددت وتوجهت إلى مكتب المدير.

لا أنكر أنه قابلني بلطف، وربّت كتفي مشجعاً، ثم سألني طلبي بعربية ثقيلة. وأجبته بعربية أثقل، فذلك أدنى أن يفهم منه. لكنني صعقت عندما أخبرني آسفاً أن التصوير ممنوع على الأجانب. **مخطوطاتنا العربية في إسطنبول أجنبية بالنسبة إلينا!** من الذي يتنكر للآخر، نحن أم التراث؟ أنسينا تراثنا أم تخلينا عنه غير نادمين؟

تألمت بفحش، وحزني أن أعود بخُفّي حنينٍ بدل رأس كليب. تمنيت لو أتتني فرصة أستغلّها، فحصلتْ وفعلتُ. كان الجو ما بين حيرتي ويأسي من جهة، والأوراق الذهبية الصُّفر التي أرمقها من جهة أخرى، عاصفاً مكفهراً. وإذا بأحدهم يدس نفسه ويوشوش في وجهي بعدد لم أعرفه من الكلمات التركية، مع كلمتين عربيتين مشتقّتين من فعلَيْ «دَفَعَ» و«صَوَّرَ». أومأت له، كم؟ فرسم على الطاولة رقماً. ودون أي تفكير أو تردد، نشلت ما في جيبي، وكان أقل بقليل من الرقم المرسوم، فاستأذنته في عزل ورقتين نقديتين تكفيان أجرة الباص إلى المطار، متنازلاً عن ركوب التاكسي، ووضعت الباقي بين يديه.

أنهيت مهمّتي وخرجت مسرعاً، فقطعت مئات الأمتار في دقائق معدودة، وإذا بشخصٍ غريب يتجاوزني، يقطع طريقي، ثم يمدّ يده مصافحاً. كدت أوجس منه شرّاً لولا أن رأيت في وجهه ملامح البراءة والبساطة والهدوء، فبادرني بالقول:

- السلامو علايكوم!.

مددت له يدي برباطة جأشٍ مجيباً:

ـ وعليك السَّلام.

وافترّ ثغره عن ابتسامةٍ رضيّ وقال:

ـ من أينا أنتوم؟

ـ من لبنان.

فهزّ رأسه وتابع بتمهّلٍ وتأنٍ:

ـ نعم. وما هوا ماوضوعكوم؟

قلت: أي موضوع؟

فتنبّه لعدم الوضوح في سؤاله وأعاد:

ـ هال تادرسونا في السولايمانيية؟ ما هوا...

ففهمت أنه قد رآني في مكتبة السليمانية، وعرفني طالب علم، وأني أتكلم الفصحى وأجيد العربية، فهو يسألني عن موضوع رسالتي، فأجبته عفواً بالعامية أن موضوعي كذا وكذا.

ورأيته يصمت، ثم يرى في الأرض، ثم يتلفّت بحيرة، فأدركت أنه لم يفهم كلامي، فلا هو سمعه من قبل، ولا طالعه في كتاب. وانتظرت ردّه فقال:

ـ لام آفهم! ماذا قولت (قلت)؟

تيقّنت أنه لا يفهم إلاّ الفصحى، بل قليلها ونادرها. فهو يعيش بين الكلمات العربية، وداخل كتبها، ولكنه بعيدٌ غريبٌ عن متداوليها. وأعدت الكلام فصيحاً مؤنقاً، فابتسم مغتبطاً وقال:

ـ شوكراً، فاهِمت!

وسكت طويلاً وهو يمشي إلى جانبي بنظام مرصوص، ففهمت من سكوته أن الذي يعرفه بالعربية قد قاله، وأنه الآن يبحث عن كلمات جديدة يعبِّر بها عن مقولة جديدة، إلى أن استعاد أنفاسه فدعاني إلى تناول الشاي في بيته:

ـ **هال آنتوم تاءتونا على بايتنا. . .**

فصحّحت له: إلى بيتنا. فسرّ واغتبط وشكرني وتابع:

ـ **تاشرابونا. . . شاي. . .**

فأكملت له جملته: قدحاً من الشاي. فغمرته البهجة وزاد في شكري، وأعاد:

ـ **نعم، قدحاً. . من. . . الشاي.**

وبسرعة البرق تناول من محفظته ورقة وقلماً، وكتب بعربية صحيحة: «تشربون قدحاً من الشاي»، وهو يتمتم: شكراً، شكراً.

لقد زال عني همّ ملاقاته عندما أدركت أن مقصوده أن يكتسب جديداً من لغتي، يقوّي به إمكانية التعبير عنده بالعربية. فارتحت له وقبلت دعوته. لكني شعرت بمرارة وأسىً عظيمين، وأنا أتعرّف هذا الأنموذج من الأعاجم، الذين يضعون أيديهم على كنوزٍ من تراثنا، ومَثلهم مع هذا التراث **كمَثَل «الغزال» يحمل أسفاراً.**

المقالة السادسة

صوموا
تصحّوا

صوموا تصحّوا[1]

كنت طفلاً بين السادسة والثامنة من عمري، يوم كنت كل ليلة قبل النوم في شهر رمضان، أشترط على والديّ أن يوقظاني لأتناول مع العائلة طعام السحور؛ وإلاّ، فإني كنت سأنكّد عليهما نهارهما إن هما أهملاني ولم يستجيبا للطلب.

ولم يكن طعام السحور عندي مجرّد وجبةٍ أُتخم بها معدتي، بل كانت المناسبة عبارة عن جملةٍ من الممارسات، لها مذاق خاص، وطعم مميّز؛ تتعدّى التلذّذ بالطعام فوق العادة، الذي يُقدّم على مائدة فلاّحٍ جنوبيٍ محروم، لتبلغ حالةً من الغبطة الزائدة، الناتجة عن الارتياح النفسي، الذي تحدثه المشاركة الاجتماعية، لطفلٍ يريد أن يكون كالكبار، وأن يتحمّل مثلهم مسؤولية الفريضة والحساب.

وكان والدي يحدّد لي الساعة الثانية عشرة ظهراً، أو موعد أذان الظهر، موعداً للإفطار يتناسب مع سنّي ومقدرتي على تحمّل الجوع

---

(١) الصيام والأسس العلمية للصحة البدنية والنفسية والاجتماعية؛ محاضرة ألقيت في مدينة النبطية (قاعة ثانوية الصباح الرسمية) بدعوة من كشافة الرسالة الإسلامية، في الخامس عشر من شهر رمضان سنة ١٤٠٥هـ، الموافق للثالث من حزيران سنة ١٩٨٥م.

والصبر على العطش. وكنت أسمع من الكبار عن وجوب الصيام وفوائده، كلاماً لم أكن أفهم منه شيئاً، فما كنت أعيره لذلك أي اهتمام.

ولا أنسى مطلع الستينات، يوم كنت مع رفاقي من تلاميذ المدرسة التكميليّة الرسمية في مدينة النبطية، الوحيدة ربما في القضاء آنذاك؛ نتجمّع مع غرْوب الشمس، وقبل موعد الإفطار بقليل، في الساحة العامة للمدينة، المسماة «القَطْعَة»، لنشهد يومياً إطلاق مدفع الإفطار. كنا نتحلّق حول المدفع الأثري، ننتظر بفارغ الصبر رفع أذان المغرب، حتى إذا ما صاح المؤذّن «الله أكبر»، أضرم رجل محترف النّار في حشوة مدفعه، فينطلق مدوّياً في آذان الصائمين، ناشراً أصداء دويّه في آفاق القرى المجاورة والبلدات، إيذاناً برفع الحظر عن الطعام والشراب.

لم تكن مسألة فوائد الصّيام، يومها، مطروحة لدينا بوجهٍ من الوجوه؛ بل كنا نصوم عملاً بقواعد الحلال والحرام. ولم نستفق على طرح المسألة ونتوقّف عندها ملياً، إلاّ مطلع السبعينات، وسط أجواءٍ من الشائعات تتهم المتعلّمين والمثقفين بالبعد عن التديّن. واحتفظت ذاكرتي حيال هذا الموضوع بروايةٍ وحدث: أما الرواية فهي عن أحد الأطباء، الذي سأله أحد تلاميذه، وهو يحاضر فيهم، عن فوائد الصيام فأجاب: **أما فوائده فلا أعرفها**، وأما مضارّه فهي كذا وكذا... وأما الحدث، فكان عندما أربكني أحد الوجهاء في إحدى المناسبات العامة، حين سألني عن فوائد الصيام، بصفتي «أستاذاً»، أي مدرّساً، وكان «الأستاذ» يومها في القرية محطّ الأنظار وموقع التميز.

وظل السؤال مطروحاً عندي إلى أن تيسّرت لي سُبُل الإجابة عنه، فأرجو أن تأتي محاضرتي هذه بما يغني ويفيد، والله ولي التوفيق.

***

التعليل العقلي لفريضة الصّيام:

نزل الوحي، وشرع النبيّ محمد ﷺ في نشر الدعوة وتعميم الرسالة، فشقّت التعاليم الإسلامية طريقها إلى قلوب المؤمنين، تحرّكهم عاطفة الإيمان، وتدفعهم الحميّة الدينية باتجاه التوحيد، والحضرة الإلهية. فكان المسلم التارك لِعبادة الأوثان، تثيره مشاعر الإيمان، ويثيره الانفعال الديني الجديد، فيقدّم نفسه في سبيل الله، أمامه تتراءى الجنّة، وعلى جانبيه تفوح رائحة التعاليم الزكيّة.

وبعد هدأة المعارك، واختفاء صليل السيوف، وسكون وقع حوافر الخيل، انبسطت الدولة الإسلامية واستقرّت، فوجد المسلمون أنفسهم، بدينهم الجديد، وجهاً لوجهٍ مع حضارات أخرى مختلفة، ومع ديانات أخرى مختلفة. كما واجهتهم تساؤلات أنفسهم، فبادروا إلى توضيح الشريعة، وتفسيرها، وإجلاء غموضها، دفاعاً عن العقيدة التي وحّدت شمل العرب والمسلمين، وألّفت بين قلوبهم، ونقلتهم من حياة القبيلة إلى حياة المجتمع الإسلامي المتحضّر، فمكّنتهم في الأرض.

أدّى ظهور الإسلام إذاً إلى بعثٍ فكري جديد، تجلّى في علوم الفقه، والتفسير، والحديث؛ كما تجلّى في النشاط الفكري للفِرق الكلامية الإسلامية المختلفة.

كان القرآن منبعاً لذلك كله. فللقرآن كما نعلم ظاهر وباطن، يعني أن فيه آياتٍ بيّنات وأُخر متشابهات. أما البيّنات فمعناها ظاهر، وأما المتشابهات فهي التي عمد رجال الفكر إلى تفسيرها وتأويلها، يعني إلى إخراج الدلالة الحقيقية لألفاظها. يقول الإمام جعفر الصادق: «إن في كتاب الله أموراً أربعة: العبارات، والإشارات، واللطائف، والحقائق. فالعبارات ظاهر النصّ للعوام، والإشارات للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء». لكأن هذا القول صدىً لقول الإمام علي بن أبي طالب ـ عليه السَّلام ـ: «**ما من آيةٍ قرآنية إلاّ ولها أربعة معانٍ: ظاهر، وباطنٍ، وحدٌّ، ومطّلع. فالظاهر هو التلاوة، والباطن الفهم، والحدّ هو أحكام الحلال والحرام، والمطّلع مراد الله من العبد بها**».

خلاصة القول: إن القرآن كان ولا يزال، مبعثاً للحركة الفكرية، وداعياً لاستعمال العقل والرويّة. وإن التعليل العقلي للأحكام الشرعية ضروري، بمقدار ما يخدم الشريعة، ولا يتعارض مع أركان الدين والعبادة.

فمسألة **التعليل العقلي** للأحكام الشرعية قديمة قِدم الإسلام. توجد الدعوة إليها في القرآن الكريم، كما في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾[1]. كما توجد الدعوة في الحديث الشريف،

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠ و١٩١.

حيث قال نبيّنا الكريم: **«لا دين لمن لا عقل له»** و**«لا يعجبكم إسلام امرئ حتى تعرفوا عقله»**. وقال مخاطباً الإمام علياً: **«إذا تقرّب الناس لخالقهم بأبواب البرّ فتقرّب أنت إليه بعقلك»**.

بناء على هذا الأساس المتين، من القرآن والحديث، نقول بفائدة التعليل العقلي للأحكام الشرعية، وأحياناً بوجوبه. في حين أن آخرين يخالفون هذا الرأي، ويقولون بمنع الخوض في التعليل، باعتبار أن العقل محدود لا يستطيع إدراك الملاكات والعلل المنظورة لله تعالى، وغير المنظورة للإنسان. لكننا مع اعترافنا بالقدرة المحدودة للعقل الإنساني، نسبة إلى عظمة القدرة الإلهية؛ نرى أن العقل قادر على التفكير والبحث في قضايا الإنسان، وفي الأحكام الشرعية المتعلّقة بسلوكه وأعماله. كما أننا، مدعومين بروح القرآن وقوة الحديث، نرى إطلاق حرية العقل في تعليل الأحكام الشرعية، تدعيماً وتثبيتاً وترسيخاً، وتسهيلاً للأخذ والعمل بها. **ليس تعليلاً مزاجياً**، أو مناوئاً يتطاول على الشريعة، بل تعليلاً أصيلاً مبنياً على أساسين متينين: **عدم التعارض** مع الفرائض والعبادات، أو نقضها؛ **وعدم الإفراط** حتى لا يبلغ التعليلُ التحريفَ.

نريد التعليل تبصرياً، مقصده الوضوح في الرؤية الدينية، ليحصل اليقين، ولتحصل اللذة العقلية الممزوجة بنشوة الإيمان وطيبه، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ . . .﴾[1].

---

(1) سورة فصلت، الآية ٥٣.

وإذا كان شهر رمضان المبارك، يطالعنا كل عام بالقول المأثور للنبيّ الكريم «**صوموا تصحّوا**»، ويرفع المؤمنون مع بداية الصوم هذا الشعار، منهم من يرفعه مدفوعاً بحرارة الإيمان، ومنهم من يتعدّى قناعة الإيمان وكفاية الاعتقاد إلى تدعيم إيمانه بالقرائن المنطقية والتعليلات العقلية؛ فإن السؤال الذي حان طرحه الآن هو:

كيف يكون التعليل العقلي لفريضة الصيام؟

الصيام فريضة دينية مثل باقي الفرائض، كالصَّلاة والحج والزكاة، التي يطالها التعليل العقلي جميعاً. فالأمر الإلهي في التشريع لا يقتصر على التنزيل وحده، أي على كلام الله بظاهره، كما نزل من الملأ الأعلى إلى الخلق عن طريق الوحي. بل الأمر الإلهي، الموجود في التنزيل أساساً، **يتعدى التنزيل** ويتجاوزه تجاوزاً إيضاحيّاً، **ليكتمل بالتفسير والتأويل**. فالتفسير والتأويل نهجان عقليّان هدفهما العودة بالخَلْق، أي بالإنسان المخلوق، إلى المعنى الحقيقي المفهوم للأمر الإلهي، أي العودة بالشيء إلى أصله، وبظاهر العبارة ومبناها إلى مدلولها وفحواها.

إنه لو اكتُفي بالتنزيل وحده دون التعليل، لكانت الآية الكريمة ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ . . .﴾[1] كافية. لكنما عُلِّلت إقامة الصَّلاة تعليلاً عقلياً بالآية القائلة ﴿. . . إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ . . .﴾[2]. ولو اكتُفي بالتنزيل وحده أيضاً، لكانت الآية الكريمة

(١) سورة النور، الآية ٥٦.
(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ...﴾[1] كافية؛ لكن فريضة الصّيام عُلّلت تعليلاً عقلياً بقول النبيّ الكريم: **«صوموا تصحّوا»**.

«صوموا تصحّوا»، عنوان للتعليل العقلي لفريضة الصيام، غايته البحث عن الأساس العلمي للصحة الناتجة عن الصوم، أي الكشف عن العلاقة الموضوعية، الثابتة والدائمة، التي تربط بين ظاهرتي الصيام والصحة.

فإذا كان القانون العلمي، عبارة عن علاقة ثابتة، ورابطةٍ دائمة، تربط بين ظاهرتين من الظواهر، كالأكل والشبع، والشرب والارتواء، وارتفاع الحرارة وتمدّد الأجسام، أو حزّ الرقبة والموت، بمعنى أنه كلما حصلت الظاهرة الأولى التي هي السبب، وجب أن يتبعها حصول الظاهرة الثانية التي هي النتيجة، وأن ارتباط النتيجة بالسبب هو ارتباط حتمي وضروري، كارتباط الاحتراق بالنار، وارتباط غليان الماء ببلوغ حرارته مائة درجة؛ فإن التأسيس العلمي لعبارة «صوموا تصحّوا»، يكون بربط ظاهرتي الصيام والصحّة، ربطاً حتمياً ضرورياً، بمعنى أنه **كلما حصل الصيام، صحّ الصائم!**

وهذه الصحة ليست بدنية فقط؛ إنّها أيضاً صحة نفسية، وصحة اجتماعية.

الصيام والصحة البدنية:

الصيام كباقي العبادات والتشريعات، لم يفرضه الله علينا من أجله هو، **فالله ليس بحاجةٍ إلى صيامنا.** ولكنه أمرنا به **لخير الإنسان.**

---

(1) سورة البقرة، الآية ١٨٣.

يقول تعالى: ﴿... مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(1).

الإنسان هو المستفيد إذاً من صيامه. وطالما أن عنوان الصيام وظاهِرَهُ الكفُّ عن الطعام والشراب، وهما غذاء البدن، فلنبدأ حديثنا بالصحّة البدنية. فما هو الأساس العلمي لهذه الصحّة الناتجة عن الصيام؟.

مقومات الصحة البدنية هي في تزويد الجسم، أو البدن، بما يحتاج إليه من الغذاء وغيره، ليبقى سليماً معافى.

فإذا كانت أجسام جميع المخلوقات الحية على سطح الأرض، بحاجةٍ إلى الغذاء لكي تنمو وتستمر في الحياة، فإن هذه المخلوقات، تخضع في طريقة حصولها على الغذاء، لقواعد معينةٍ تتناسب مع حاجاتها، وتختلف تبعاً للنوع، ولظروف المكان والزمان.

فنبات المناطق الاستوائية وحيوانها، يختلف عن نبات المناطق المعتدلة، أو القطبية الباردة، وحيوانها. كما أن الإنسان الذي يعيش في الريف، أو في البادية، ينظِّم مأكله ومشربه، من حيث نوعه وطريقة تناوله، بشكل مختلفٍ عن الإنسان الذي يعيش حياة المدينة وتعقيداتها.

بالإضافة إلى هذه الاختلافات في أنواع التغذية وطرائقها وأساليبها، تبعاً لاختلاف الأمكنة والبيئات الطبيعية، توجد اختلافات أخرى أكثر أهمية، سببها الفروقات النوعية والفردية، وخضوع الأنواع

(1) سورة المائدة، الآية 6.

والأفراد من الأحياء لعوامل الحركة والتغيّرات الزمانية. فالنباتات بشكل عام، لا تستمر دورة التغذية عندها على مدار السنة على الوتيرة نفسها. بل تتغيّر أو تتوقّف هذه الدورة، ويمتنع النبات عن الغذاء فترة من الزمن. فلو راقبنا في حديقة منزلنا شجرة الدرّاق، أو الكرمة أو التين، نراها بعد موت شتوي مؤقت، تتفتّح براعمها من جديد مع بداية فصل الربيع، فتورق وتزهر ثم تثمر، إلى أن تعود فتصفرّ أوراقها ثم تذبل وتتساقط في الخريف. وفي الشتاء تسكن دورة الحياة فيها، **وكأن هذه الأشجار تتناول وجبة غذائية واحدة، تبدأ بتناولها أول الربيع، لتستمر وتنتهي مع نهاية الصيف، فتمسك عن الغذاء في الخريف لتصوم فصل الشتاء كله.**

هذه صورة عن الصيام في عالم النبات، أما في عالم الحيوان، فلن نحتاج إلى جهدٍ كبير، حتى نكتشف ظاهرة الصيام عند كثيرٍ من الحيوانات. فالحشرات والهوام التي تختبىء في أوكارها المقفلة أيام البرد، كالزواحف مثلاً، تنكمش على نفسها وتصوم. وبعضها، كدودة القزّ، تعتصم في خبائها الحريري، وتظل صائمة حتى تتحوّل إلى فراشة تثقب جدار ملجئها وتطير، أو يعاجلها المزارع فيخنقها ويستغل حريرها.

هذه الحالات من الصيام، وغيرها، جميعها حالات طبيعية، فطرية وغرائزية، لا واعية، ينفذها الكائن الحي، النباتي أو الحيواني، تلقائياً، انسجاماً مع طبيعته الحيّة التي أوجده الله عليها، وتطبيقاً آلياً لقوانينها. فالكفّ عن الغذاء هنا، والامتناع عنه، هو امتناع طبيعي، فطري، لا يعقله فاعله، لأنه لا عقل له. والإنسان وحده هو الذي يعي

هذه الحالات، فيعقلها ويعلّلها، كونه السيّد العاقل للمخلوقات، وخليفة الله في الأرض.

الإنسان وحده يصوم عن وعي ودراية. لقد فرض الله عليه الصيام واعياً، كما فرضه على غيره من الكائنات الحية وفقاً لقوانين الفطرة والغريزة. الإنسان وحده يقف عند فريضة الصيام موقف العارف، والمتأمّل، والمتّعظ، والمتّقي، استجابة لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١).

إن ما عجز الإنسان عن اكتشافه في الماضي، من أصول الصحّة البدنية الناتجة عن الصيام، نراه يكتشفه يوماً بعد يوم، بفضل تطور العلوم والمعارف، وبفضل تقدّم الأبحاث العلمية والمختبرات.

قد لا يكون بوسعنا تسجيل كل الدقائق والتفاصيل المتعلّقة بفوائد الصيام الصحيّة، فذلك من شأن الباحثين في العلوم الطبيعية والطبيّة، لذلك نكتفي بذكر أهم الفوائد، التي توصّل إليها وسجّلها البحث العلمي الحديث.

يعتبر علماء الفيزيولوجيا(٢) الصيام علاجاً ناجعاً يدخل في باب **تنقية الجسم من الرواسب والسموم**. ويتم ذلك على الوجه التالي:

إن كل ما يتناوله الإنسان من مأكولات ومشروبات، تنتقل خلاصاته الغذائية إلى أعضاء الجسم وأنحائه عن طريق الأوعية الدموية. وبين الأوعية الدموية وأعضاء الجسم المختلفة، توجد

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٣.
(٢) علم وظائف الأجسام والأعضاء.

أنسجة وصلية تملأ الفراغات، وتكون كالاسفنجة، وظيفتها امتصاص محمولات الدم الغذائية ونقلها إلى الأعضاء من جهة، ومن جهة أخرى، وبالاتجاه المعاكس، تنقل فضلات الأعضاء إلى الدم، فيقوم الدم بطرحها خارج الجسم، بواسطة الجلد، أو الكليتين، أو الرئتين.

وفي طريقها من الأعضاء (خلايا العضلات مثلاً) إلى الدم، عبر الأنسجة الوصلية المذكورة، تترسّب الفضلات تدريجياً في هذه الأنسجة، على شكل سموم، إذا ما بلغت مراحل متقدمة من التخمة، أدّت إلى كثير من الأمراض البغيضة، كالأورام الروماتيزمية، والتدرنات، التي تنشأ عن الترسبات السامّة وليس عن التلوث الميكروبي.

في هذه الحالة، **تصبح تنقية الأنسجة الوصلية بواسطة الصيام، علاجاً طبيّاً فعّالاً وضرورياً**. كما يمكن للتنقية بواسطة الصيام أن تكون علاجاً وقائياً مفيداً، وذلك قبل تفاقم عملية الترسّب وبلوغها المرحلة المرضيّة.

أما علاج التنقية بالصيام فمتعدد الأساليب، ويمكن أن يتم:

أ ـ إما بالصيام الكامل المطلق، وهي حالات مرضيّة خاصة، تتم معالجتها تحت الرقابة الطبيّة.

ب ـ أو بالصيام الجزئي، أي بالامتناع عن تناول أنواع معينة من الأطعمة[1]، أو بالاقتصار على أنواع أخرى، كالفواكه أو السوائل أو غيرها.

---

(١) هذا شأن الحمية، وحكمتها: «المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء».

ج ـ وإما بالصيام الطويل، على طريقة فريضة الصيام عند المسلمين، أو كما يتم في البيئات الطبّية غير الإسلامية. ففي أوروبا مثلاً، يخضع الصيام الطويل للرقابة الطبية، ويستمر فترة تتراوح بين الأسبوعين والأربعة، تحصل خلالها عملية الإنقاص التدريجي للكميات الغذائية المتناولة، فتتم عملية التنقية تدريجياً، وتطرح السموم المترسبة خارج الجسم.

فكل صائم منّا إذاً، وفقاً للنظرية العلمية المشار إليها، يقوم بعملية تنقيةٍ لأنسجته الوصلية، إما تنقيةٌ علاجية فعلية إذا كان مصاباً بالترسّب؛ وإما تنقية وقائية، وهي ضرورية بشكل دوري لغير المصاب، وقايةً وحرصاً على سلامة البدن والأعضاء.

والتنقية على أهميتها، ليست النفع الوحيد، ولا الفائدة الفريدة من الصيام. إذ ينصح الأطباء بالصيام كعلاج للذبحة الصدرية، وارتفاع ضغط الدم، وروماتيزم المفاصل، والبواسير، والتهابات طبقة الجلد الداخلية، وحالات الإمساك المزمن، وداء الصرع، وغيرها من الأمراض. ناهيك بالسمنة، فالسمين والسمينة يقبلان على الصيام مدفوعين إلى جانب الأمر الإلهي، بالرغبة في تأمين الرشاقة وحسن القوام.

إنما هناك أمراض لا ينصح معها بالصيام، كالأورام الخبيثة، والسل، والسكري، والتهابات الكبد والكليتين. وفي ذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾(١).

(١) سورة النور، الآية ٦١.

على أن العلاج بالصيام ليس له ما يبرّره طبياً، إلاّ إذا كانت الغاية منه الاعتدال في الغذاء، وامتلاك القدرة على اتباع النظام الغذائي السليم، الذي يشكّل مدخلاً للوقاية المُثلى من كل الأمراض التي ذكرت. فالتغذية الخاطئة وغير السليمة، قد تؤدّي فيما تؤدي إلى ضمور النسيج القلبي، فلا يعود القلب قادراً على ضخ الدم بالقوة الكافية.

من هنا وجب علينا التنبّه الشديد، والحيطة البالغة، من الطرائق غير القويمة، المتّبعة عند الكثيرين، والتي يقدم متبعوها خلال الليل، خارج أوقات الصيام، على تناول أضعاف ما فاتهم تناوله خلالْ نهار صومهم، من المآكل الشهية، والمشارب غير النقية!

إن ذلك ليس من الصيام في شيء، لا طبياً ولا دينياً. **وإن من لا يعتدل في طعام إفطاره، فصيامه وبال على صحته**، وتفريط منه بنقاوة الصيام وطهارة الفريضة.

الصيام والصحّة النفسية:

الصيام، تعريفاً، هو إمساك النفس وكفّها؛ ليس عن الطعام وحسب، إنما أيضاً، عن الاندفاع بعاطفة الشهوات، أي عن اللحاق بركب الرغبات والميول الفردية والأنانية. وهذا مجال الصحة النفسية.

ولا ننسى العلاقة الوثيقة التي تربط الصحة النفسية بالصحة الجسدية. قال أفلاطون: **العقل السليم في الجسم السليم**. وأثبت علم النفس أن الصحة البدنية تنعكس إيجاباً على الصحّة النفسية. فالإنسان الصحيح البنية والجسد، يتميّز بصفاء الذهن والنفس. بينما الإنسان العليل يسوء مزاجه ويتصلّب. كذلك، فإن الراحة النفسية تُشعِر بالحيوية والنشاط الجسدي، بينما يتحول الاضطراب النفسي، وتنقلب

المعاناة النفسية إلى كثير من الأمراض الجسدية. فكم من مريض عجز الطب الجسماني عن تشخيص علّته، ولم تُعرف أسباب مرضه الجسماني الظاهري، ولا أمكن شفاؤه إلاّ عن طريق العلاج النفسي، الذي يكشف عن شللٍ وهمي، أو انحطاط جسدي وهمي، أو فقدان وهمي للشهية وانقطاع عن الطعام، أو أي نوع آخر من أنواع التمارض التي لا يعيها صاحبها، وهي ليست أمراضاً جسدية حقيقية!

ودون أن ندخل في تفاصيل هذه المسائل، نختصر القول، ونعتبر المقصود بالصحة النفسية، **الاتزان النفسي**، الذي يؤدّي إلى التصرّف الطبيعي، غير المنحرف، أو المرتبك أو المتردد.

فما هي علاقة الصيام بهذا الإتزان؟.

الإنسان المتزن نفسياً، هو الإنسان المعتدل، الذي يمتلك زمام أمره ويستطيع السيطرة على ذاته. إنه سيد نفسه، وليس عبداً لشهوةٍ، أو شغفٍ، أو رغبةٍ جامحةٍ أو ميل منحط. هذا الإنسان تتوافر فيه أهم مقومات الصحة النفسية، **ألا وهي الإرادة!**.

الإرادة هي أداة الضبط لأفعال الإنسان، تتمثّل بالتصميم على فعل شيء معيّن، فالعزم على هذا الفعل، ثم تنفيذه. وعدم التنفيذ يلغي الفعل الإرادي.

إن من يكتمل تصوره وفهمه لفضيلة الصيام مثلاً، فيعزم على أداء هذه الفريضة، ثم ينفّذ عزمه، بدءاً بتناول طعام السحور، فالإمساك عن الطعام والشراب، ثم الكفّ عن المفطّرات طوال اليوم؛ يتجلّى في عمله هذا فعلٌ إرادي كامل.

هنا يجب **التميز بين الرغبة والإرادة**، وعدم الخلط بين الفعلين.

صحيح أن الإرادة ترتبط بالرغبات، وتبنى عليها، كالصائم الذي يستجيب لرغبته في طاعة ربه وفي العمل بحكمة نبيّه، وكالطبيب الذي يلبي رغبةً ويحقق ميلاً للتخصّص في الحقل الطبّي؛ لكن الحذر من تحويل الإرادة إلى رغبةٍ من الرغبات. **فالإرادة في جوهرها تعني المنع، والإمساك عن الرغبات، وعدم الانجرار خلفها**. كما تعني مقاومة الميول الأنانية، والقول «لا» للمغريات السلبية، والوقوف بحزم في وجه ما يغوي، ويدعو للانحراف ومرضاة الشيطان.

الفعل الإرادي إذاً، وإن ارتبط برغبةٍ، فهي رغبة مثلى لا رغبة سفلى. جوهره الموقف الصلب، الحازم، والمناوىء لأعمال الفساد، والانحراف، والانجرار خلف الرغبات الخسيسة العابرة. إنه فعل العقل المتحكّم بالرغبات، المميّز غثها من سمينها، خدمة للقِيَم الإنسانية، الفردية والاجتماعية.

ذو الإرادة القوية، هو الذي يبقى يتبسم رغم حزنه، ويبقى هادئاً رغم غضبه، ويبقى يعمل رغم تعبه.

الفعل الإرادي الذي هو بهذا المستوى من الترفّع، والتنزّه، والسمو، **هو فعل يتقرّب فيه الإنسان من خالقه كما يقول الفيلسوف** الفرنسي ديكارت.

بناء عليه، فإن المسلم الصائم يمارس أعلى مستوىً من مستويات الفعل الإرادي. إنه إذ يُمسك عن الطعام فيرى المآكل الشهية لا تجذبه، وإذ يكفّ عن الشهوات فيرى المغريات لا تشدّه، وإذ يمتنع عن الشرور فيكبح جماح نفسه، ويتوجه بكليته إلى ضبطها، وإذ يتحكم بجسده فيترفع عن كل ما يغوي، ويصبر على الحرمان؛ إنه

عندما يفعل ذلك كلّه، يقوم بأرفع عملية تدريب لإرادته، فتقوى شخصيته، ويشتد بأسه، ويكون أنموذجاً للإنسان العارف العامل.

الصيام إذاً مصنعٌ من مصانع الإرادات. والفعل الإرادي هو من الأفعال الإنسانية قمتها، ورأس هرمها. يقترن هذا الفعل مع الصيام بحالة أخرى من حالات الصحة النفسية، ليست أقل أهمية؛ **إنها حالة التحرّر والتخلّص من عاداتٍ يوميةٍ مألوفةٍ قد تكون سيئة**.

يقوم الروتين اليومي في غير شهر رمضان، على تناول الوجبات الثلاث، وعلى إشباع رغباتٍ أخرى أو سدّ حاجات مألوفة. يأتي الصيام ليشكّل صدمة لهذه المألوفات، فيفرض ممارسات جديدة، يحكمها تقسيم جديد للزمان، واستعمال مختلف للوقت، ومنعٌ مؤقت لأفعال الحلال. إن عاداتٍ ومألوفات ومباحاتٍ أحد عشر شهراً في السنة، تصدمها وتقلب موازينها فرائضُ ومتغيراتُ الشهر الثاني عشر، شهر الصوم.

يقول جان جاك روسّو: «**إن أفضل عادة يمكننا أن نُكسِبها لطفل، هي أن لا ندعه يكتسب، أي يتعوّد، أية عادة**». ذلك لما للعادات، أي للأعمال الروتينية التي تتكرر وتتردد، من السيئات. إن **آلية التكرار تميت النفس**، فتمنع الخَلْق، وتخنق الإبداع، وتقضي على التجديد، وتجعل الإنسان أسير ممارساته، وعبداً لانفعالاته وطرائق التفكير.

نحن لا نجاري روسّو تماماً في طرحه، وإن كنّا معه في وجوب الابتعاد عن العادات السيئة. إلاّ أن هناك عادات جيّدة وجميلة، تساعد الإنسان في تكيّفه مع بيئته، وفي تصالحه مع نفسه.

فضيلة الصيام على هذا الصعيد، هي في تحريرنا من عاداتنا المألوفة، وطرح إشكالية التغيير والتجديد، وخلق الاستعداد النفسي لمواجهة المتغيرات، والتزوّد بالإمكانات اللازمة للتكيّف، واكتساب المرونة في مواجهة الصعاب.

والصيام ينمّي فينا عاداتٍ فاضلةٍ، ضرورية من أجل حياة رشيدة مستقيمة، **كالتعوّد على الصبر، والتحمّل، والانضباط، والأمانة التي رفضت الجبال حملها فحملها الإنسان.** فالصائم الذي يتقيّد بمواقيت معينة للطعام والشراب، أو الإمساك عنهما؛ كما يتقيّد بطرائق دقيقة، وممارسات مرهفة، كالكفّ والامتناع، أو الفعل والإقدام، أو الحذر والحيطة؛ يمارس مع التزاماته هذه أعلى درجات ضبط النفس.

إن الصائم الذي لا يمنعه عن المفطّرات والمحرّمات، **إلاّ ارتباط أمانةٍ بينه وبين ربّه،** يتعلّم ويتعوّد ويلتزم بأن يكون **أميناً مع نفسه، أميناً مع أهله وإخوانه، أميناً في مجتمعه، وأميناً في كل مجالات حياته.**

الصيام والصحّة الاجتماعية:

إذا كانت الصحة البدنية، تقوم على تطبيق القواعد الخاصة بحسن عمل البدن، وانتظام الآلية الفيزيولوجية، للحفاظ على الجسم بجميع أعضائه صحيحاً معافى.

وإذا كانت الصحة النفسية، تقوم على تطبيق القواعد الخاصة بالاتزان النفسي، لتبقى النفس بتصوراتها واستجاباتها ومرونتها سليمة معافاة.

فإن الصحة الاجتماعية، وعلى النسق نفسه، تقوم على تطبيق

القواعد الخاصّة بالانسجام والانصهار الاجتماعي، **لتحقيق التكامل الاجتماعي، والعدالة الاجتماعية، وسلامة الفرد والمجتمع.**

إن دراسة السلوك الإنساني الفردي، أي الفرد بعاداته، وميوله، وانفعالاته، وذكائه، وشخصيته، هو موضوعٌ لعلم النفس. أما دراسة سلوك الإنسان، كعضوٍ في مجتمع، بتقاليده، وتوجهاته، وقِيَمه، وروابطه المتينة أو المفكّكة، وطابعه الاقتصادي، أو العائلي، أو الأخلاقي، أو العلمي والمعرفي، هو موضوعٌ لعلم الاجتماع.

أساس القانون الاجتماعي أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بمفرده، إنما عضواً في مجتمع، تربطه بباقي أعضائه روابطُ متينة وصلاتٌ دائمة لا تنقطع، أهم ما فيها **التعاضد الاجتماعي، والتعاون والتكامل الاجتماعي**. ولا تعاضد، أو تعاون، أو تكامل، **بلا لحمةٍ اجتماعية. فما هي طبيعة هذه اللحمة التي يوجدها الصيام في المجتمع؟**

إذا جاز لنا أن نصنِّف الفرائض الدينية، بين الشخصي الفردي والشخصي الاجتماعي، **فإن فريضة الصيام هي فريضة اجتماعية، كفريضة الحج**. إذ يمكنك أن تصلي العمر كله، دون أن يراك أحد، أو يتابع قيامك وقعودك أحد. لكن صيامك ظاهر للملأ، والمشاركة الاجتماعية فيه حاصلة، يطيب للصائم الالتزام بها والامتثال.

ألا نرى جميع الصائمين في أصقاع الأرض، يمسكون عن الطعام والشراب معاً، ويمتنعون عن المفطرات معاً؟ ينتظرون سوية مغيب الشمس، تحركهم الإحساسات نفسها، والمشاعر ذاتها؟ **ينتظر أفقر الفقراء كما ينتظر أغنى الأغنياء، يفطرون** على صوت المؤذن،

يُدخِل ذبذبات الصوت في آذانهم وقشعريرة الإيمان في قلوبهم. وتتآلف عقيدة التوحيد عندهم مع هاجس جمع الشمل وتوحيد الكلمة. إنه مظهر الوحدة في المجتمع الإسلامي، **يجمع شهر رمضان المسلمين، ويوحدهم، كما تجمع فئةً أو جماعةً منهم صلاةُ الجماعة أو إقامةُ الذكر الحكيم.**

شهر رمضان هو شهر التوبة، وشهر الإحسان، يكفِّر الصائمون فيه عن ذنوبهم بفعل الخير، والصدقات، وإطعام المساكين، ومساعدة الفقراء والمحتاجين، ومسح دموع اليتامى، وتخفيف آلام المرضى والعاجزين. **مظهر من مظاهر التكافل الاجتماعي، إلى جانب المشاركة الاجتماعية**، في الأعمال والأفعال، والرؤى والمشاعر.

أما التضامن الاجتماعي فلا يقتصر على العطاءات المادية والعينية، بل يتعداها إلى مظاهر المساواة، وأشكال العدالة الاجتماعية. فكما في الصلاة يسجد العامل مثلما يسجد السلطان، **كذلك في الصيام، يكفّ المحروم كما يكفّ القادر الميسور، ويجوع فقير القوم كما يجوع غنيهم، فيتساوون.** كلهم يُقدِمون، أو يمتنعون؛ يجمعهم الخوف، والجوع، ويصبرون.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1].

تقويــــم:

الصيام، كما سلف الحديث، فريضة دينية اجتماعية، توجّه

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٥.

الفرد وتضبط سلوكه في المنحيين: المادي والروحي، وتساعد على توفير الصحة له والعافية لمجتمعه. هذه الفريضة ليست إسلامية فقط، فهي متجذرة في التاريخ، وسابقة بأشكال متعددة للرسالة الإلهية التي بلّغها النبي محمد ﷺ. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١).

فقبل الإسلام:

صام آدم عليه السّلام بعد خروجه من الجنّة **الأيام البيض**، وعددها ثلاثة أيام في الشهر.

وصام نوحٌ بعد أن رست سفينته **مايةً وخمسين يوماً**.

وكان موسى يصوم أربعين يوماً من كل عام.

وصامت اليهود ابتهاجاً بنجاتهم من الغرق في البحر الأحمر.

وصام المسيحيّون الصوم الكبير، الذي كان يصومه السيد المسيح عيسى بن مريم ـ عليه السّلام ـ.

وكانت المصطفاة مريم قد صامت قبله لمواجهة ردات الفعل على الحَبَلِ الذي لم يَمْسَسْها فيه بشر.

وقد خاطبها الله تعالى بقوله: ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾(٢).

هذا الصيام المريمي، وهو **كفٌ عن الكلام** وليس عن الطعام،

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٣.

(٢) سورة مريم، الآية ٢٦.

كان أبلغ معنىً وأعمق مدلولاً. فالصوم عن الكلام، أي الامتناع عنه، يدخل في باب العلاج النفساني، **بهدف التهدئة النفسية**، والتخفيف من الانفعال، سواء أكان ذلك الانفعال فرحةً، أم حزناً أسيّا.

هكذا صام زكريّا عندما بشّره الله بغلامٍ اسمه يحيى، وكانت امرأته عاقراً وقد بلغ من الكِبر عِتيّا، فوهبه الله من لدنه ولياً. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾[١].

وشهر رمضان، إضافة لكونه شهر الصوم، فقد حفل عبر التاريخ بالأحداث الكبيرة والأمجاد الخالدة. فيه نزلت الكتب السماوية[٢]، وفيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. وفيه حقّق المسلمون انتصاراتهم وأنقذوا عقيدتهم والبلاد[٣].

وشهر رمضان، الذي رأينا في صيامه **شفاءً للجسد من رواسبه وسمومه، وتحريراً للنفس من شهواتها والرغبات، واكتساباً للإرادة الفردية، وزوالاً للفوارق والامتيازات الاجتماعية**؛ هذا الشهر، نقلّب صفحاته المضيئة والمشعة صفحة صفحة، من القرن الأول للهجرة النبوية، الذي طفح بالأحداث العظيمة، وحتى زماننا الحاضر هذا،

---

(١) سورة مريم، الآية ١٠.

(٢) نزلت التوراة في السادس منه، والإنجيل في الثاني عشر، والزّبور في الثامن عشر، ونزل القرآن في ليلة القدر.

(٣) في السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، حقق المسلمون أول انتصار لهم في بدر. وفي الواحد والعشرين منه من السنة الثامنة للهجرة تمّ فتح مكة. وفي شهر رمضان فتح المسلمون ثغور الأندلس، وحقق طارق بن زياد انتصاراته، وانقذت البلاد الإسلامية من التتار.

فنشهد أحداث تحرير الإنسان، وتحرير الأرض، وتحرير الوطن من الغاصبين.

رجاؤنا أن يشهد الصائمون مع نهاية كل شهر، لهذا العام وللأعوام المقبلة، عيدين: عيد الفطر السعيد، وعيد تحرير الأرض والمقدّسات.

﴿... فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ...﴾[1].

(1) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

المقالة السَّابعة

تفتح صيدون فيشع نور العلم على تلميذات صغيرات مهذّبات

تفتح صيدون
فيشع نور العلم[1]
على تلميذاتٍ صغيراتٍ مهذّباتٍ

... وبقينا نطوي صفحات أربعة أشهر من عمر السنة الدراسية، ومذكرةٍ مليئةٍ بالهموم والمتاعب، والمشكلات والمراجعات، المُحقّ منها والوضيع، حتى استطعنا أن نخصّص ساعات معدودات لتفقّد إخوتنا وأبنائنا في المدارس.

واتجهنا من تحت قنطرة إلى تحت قنطرة، عَدْواً بين حبال المطر ومزاريب السطوح الأثرية، وقفزاً فوق مجاري مياه الأزقة، تجاذبنا، موظفين مخلصين في الإدارة التربوية وأنا، رغبتان يصعب التميز بينهما في عتمة ذلك النهار الماطر: رغبة في الاحتماء في أحضان المدينة القديمة، من عوارض البرد والماء المتسرّب عبر الرقبة إلى ما فوق جلد الظهر والكتفين؛ ورغبة في اجتياز التاريخ المتجسّد في كل زاوية وحجر، والمطلّ برأسه من كل بابٍ ومنفذ، وصولاً إلى مدرسة صيدا الرسمية للبنات.

---

(١) نشرتها النهار يوم الأحد في ١٩٨٦/٣/٣٠.
ونشرت جريدة السفير المقالة نفسها بعنوان:
«مدارس صيدا القديمة رحلة تحت القناطر والمطر» في ١٩٨٦/٤/٤.

بناء قديم غيّرت وجهه حضارة القرن العشرين، ومسحت عنه أنامل الصيداويين المتحضّرين غبار الأيام وسواد السنين. تدخله بعد أن تخترق غابة من الممرّات أشبه بالدهاليز، فتجد نفسك في باحةٍ يظهر لك منها وجه السماء، فتستمتع بضوء النهار، وربما، لولا الغيوم المتلبدة، بأشعة شمس صيدون. ثم تعتلي درجاً، وتلج باحة صغيرة، زادتها كآبة الشتاء هدوءاً. أمامك أبواب تظنّها موصدة؟ تفتحها، فيشع في وجهك نور العلم، على وجوه تلميذاتٍ صغيراتٍ مهذّبات، تزوّدهن به مربيات مخلصات، جمعتهن مديرتهن بنفس ما تجمع به ربّة البيت أفراد عائلتها.

إنك ترتاح نفسك لما ترى. تستعيد ثقتك بالمدرسة الرسمية. تحلم في أن تعمّ التجربة كل المدارس. باستطاعة كل مدير مدرسة أن يتبنّى مدرسته، أن يعتبرها ملك أبيه فيحرص عليها. كما باستطاعة كل معلّم أن يكون أخاً لهذه المدرسة وإبناً باراً لها.

وتحضر في ذهنك صور جميلة لمدارس أخرى ناجحة، في صيدا وصور والنبطية، كما في جزين ومرجعيون وحاصبيا وبنت جبيل وكل الجنوب. تتساءل بمرارة وأسىً: لماذا لا تكون كل مدارس الجنوب زاهرة؟ إننا لا تنقصنا الإمكانات والخبرات، ولا تنقصنا الرغبات والتطلّعات. يا أهل العلم والثقافة لا تخلطوا كثيراً بين الحرب والتربية. لماذا المغالاة في تحميل الحرب كامل مسؤولية الفساد؟ لماذا لا يكون العكس هو الصحيح؟

لقد ظل الناس يأكلون الطيبات رغم الحرب، وينكحون الجميلات في ظلمة الحرب، ويرتدون الملابس الأنيقة وسط دخان

الحرب، ويأوون إلى المنازل الوثيرة والقصور الفخمة بعيداً عن ساحات الحرب، ويركبون السيارات الجديدة تنهب الطرقات الواصلة بين مناطق المعارك وفصول ومفاصل الحرب، ويقرأون بنهم ما تنقله الصحف اليومية من أخبار الحرب!

ويقيت المدارس الخاصّة ماضيةً في استقطاب التلاميذ، إلاّ المحرومين منهم. وفي استقطاب المعلّمين إلاّ المكتفين منهم. فكيف يحق لبعض المعلّمين أن يكونوا فاشلين في مدارسهم الرسمية وناجحين في المدارس الخاصة؟ متقاعسين عن أداء واجباتهم في هذه وأسوداً في تلك؟ جاهلين ببعض المواد هنا، وعارفين بالعلوم كلها هنالك؟ ليست الحرب سبباً لكل شيء؛ والمسألة مسألة ضمير، مسألة أخلاق، ومسألة حضارة!

تصوروا مصباحاً يترك مضاءً في وضح النهار، فيستهلك طاقةً دون أن نتفع بنوره. وتصوّروا حنفية ماءٍ تترك مفتوحة، زمن الشح، تصب ماءها في المجارير فيذهب هدراً دون أن نغتسل به. وتصوروا شجرة مثمرة سقاها مزارع بعرق جبينه، وعندما أينعت ثمارها تُرك حلوها طعماً للحشرات. تصوروا ما شئتم من الأمور الذاهبة هدراً، على غرار النعجة الحلوب، التي تدرّ حليباً، ثم تعمد بواسطة قائمتها إلى قلب الوعاء الذي درّت فيه وترفس حليبها!

هكذا نتصوّر بعض الجوانب الحزينة من واقع التربية والتعليم في الجنوب، أموالاً تصرف، وطاقات تهدر، وجهوداً مضنية تبذل، وجلّها كالزبد يذهب جفاءً. تكاليف كثيرة ونفعٌ قليل. مأساة ليس سببها الوضع الأمني فقط، الذي نتخذه غالباً حجّة وذريعة؛ بل المسألة

مسألة ضمير، مسألة أخلاق، ومسألة حضارة!

إن الذين لا يستطيعون التميز بين جوهر الأشياء وعَرَضِها مهما تعمّقوا في فلسفة أرسطو؛

والذين لا يستطيعون التفريق بين محتوى القضايا وأشكالها مهما تفهّموا مقولات المنطق الصوري؛

والذين لا يدركون باطن الأشياء من ظاهرها مهما تبحّروا في فلسفة كانط؛

هؤلاء، قد يستطيعون فعل ذلك كله، لو نزلوا من بروج الأوهام والأحلام إلى أرض الواقع، وعايشوا الأحداث والحياة اليومية.

لن يكون ذلك صعباً على الذين وُلدوا ومرارة الكدح في أفواههم وتحت ألسنتهم، ولا على الذين عاشوا وصور البؤس والشقاء في عيونهم، أو الذين كبروا وأصوات الآلام ترنّ في آذانهم! أولئك الذين غالبوا الأحزان فعلاً، وكابدوا متاعب التجارب حقّاً، تعيش في أذهانهم مفاهيم الحق، والعدل، وتحيا في أعماق نفوسهم الضمائر.

أولئك موجودون فعلاً، واحة خضراء وسط الصحاري القاحلة. ووجودهم ضروري لتبقى الشعلة منيرة، وليبقى صوت الحق مسموعاً.

تباً للأحداث الأليمة والظروف الصعبة التي يعيشها هذا الوطن المعذّب. إنها، وإن كانت سبباً محقاً لتخلّف بعض أبنائه عن أداء واجباتهم؛ إلاّ أنها فتحت للأكثرية باباً مزيّفاً للتقاعس عن أداء الواجب.

لقد اتخذ الكثيرون من الظروف العامة ذريعة يحتجون بها للاختفاء خلف أصابعهم، سعياً وراء المصالح الخاصة والمنافع الفردية، فساعدوا بذلك على نهش لحم هذا المجتمع، إن لم نقل هذا البلد. فإنك لا تكاد تسأل موظفاً عن سبب عدم التحاقه بوظيفته، أو مسؤولاً عن عدم تحمّله لمسؤوليته، أو عاملاً عن إهماله لعمله، أو رقيباً عن إغماض عينيه، أو تلميذاً عن تخلّفه وإهمال واجباته، إلاّ والجواب جاهز في عينيه، وعلى لسانه وشفتيه: أسباب أمنية! تحت شعار الأسباب الأمنية، يمتنع آلاف المواطنين عن الإنتاج والعطاء، يتحولون إلى مستهلكين على حساب المصلحة العامة. يأخذون من مجتمعهم ولا يعطونه، يجيزون لأنفسهم تقاضي مالهم ولا يلزمونها بدفع ما عليهم. ويخرجك من جلدك أن تسمعهم يتهكمون على من تبقى عنده شيء من ضمير، فيتهمونه بالغباء والجبن. غبي بنظرهم من ظل يعمل وكان باستطاعته أن يتقاضى أجراً وهو قابع في بيته لا يعمل، أو ممتهن لمهنةٍ أخرى غير مهنته ووظيفته، أو مهاجر خارج الأراضي اللبنانية!

لا يمكن لمجتمع أن يبقى متماسكاً ويكون قوياً ويتقدّم، ما لم يتحسس أفراده المصلحة العامة. في البلدان المتطورة والمتقدمة ترى المؤسسة الرسمية في الطليعة؛ ترى وسائل النقل العام، والمستشفى الحكومي، كما ترى المدرسة الرسمية والجامعة الوطنية. فلماذا نتخلى في بلدنا عن المؤسسة الرسمية لحساب المؤسسة الخاصة، ونتخلّى عن المصلحة العامة من أجل الصالح الخاص والشخصي. لماذا هذا الميل نحو الفردانية؟ لقد تقلّص عندنا الحسّ الاجتماعي، وبتنا نهتم بما يخصّنا شخصياً فقط. أما ما يخص المجتمع، والملك العام،

فكأننا لا علاقة لنا به. هل نسينا أن شبكات الطرق، والماء، والكهرباء، وخطوط الهاتف، والأبنية الرسمية وتجهيزاتها، ورواتب الموظّفين في القطاع العام، كلها ندفع ثمنها ونتحمّل أعباءها نحن أبناء الشعب؟ لقد نسينا ذلك ورحنا نعبث بمالنا ونسرق أنفسنا. إننا نأكل من لحمنا، كالهر الذي يلحس المبرد، فيظل يتلذذ بدمه حتى ينضب دمه.

هذا منتهى الغباء، ومنتهى التخلّف، إضافة إلى الانحراف أو تعمّد الضلالة. إن الذي يعبث بالصالح العام لحساب النفع الفردي، عدا عن كونه سارقاً لنفسه، أو لجاره وأخيه؛ هو جاهل أرعن، شأنه شأن الأحمق الذي يجلس على غصن الشجرة من طرفه، ويعمد إلى قطع الغصن من عنقه، دون أن يعلم أنّ الغصن الذي يهمُّ بقطعه سيهوي به ويحطم ضلوعه.

كم يكون تعيساً ومحدوداً من يعتقد أن السعادة موجودة في الضحك دون البكاء، وفي الابتسامة دون الدمعة، وفي الحلاوة دون المرارة، وفي الراحة دون التعب، وفي الإغفال دون المعاناة، وفي الأخذ دون العطاء، وفي القعود دون القيام والتحرّك والعمل والمجاهدة والمكابدة.

هناك أناس كتب عليهم العناء، فأنِسوا به وأَلِفوه، وبحثوا عبره عن خبزٍ مجبولٍ بعرق الجبين، فكان خبزاً مباركاً ولذيذاً. وتبقى المسألة مسألة ضمير، ومسألة تربية وأخلاق، إن لم تكن بنظر البعض مسألة طبيعة ومزاج؛ وفي كلا الحالين تكمن الأصالة، وتنغرس جذور الحبة التي تنبت سبع سنابل، في كل سنبلةٍ مائة حبة، والويل للمتقاعسين.

ولكم يعزّ عليك أن تحرث أرضاً وتزرعها ثم لا تؤتي هذه الأرض ثمارها. كما يعزّ عليك أن تجمع أفضل المواد ويبقى بناؤك مع ذلك هشاً، أو أن تبذل عطاءً من نفسك، من حلمك وخيالك، كما من فعلك وبأس سواعدك، ثم تنظر، فترى وتجد من يعبث بأحلامك وجهودك.

أناديكم يا أهل العلم والتربية، أناشدكم أن لا تأكلوا مستقبل أبنائكم بالباطل. لا تجيزوا سرقةً لأنفسكم بحجة وجود اللصوص والسارقين، بل اقتدوا بالخيّرين. إن باستطاعة كل معلم أن يكون رسولاً، كما باستطاعة كل مدير مدرسة أن يكون دافىء القلب ساهر العينين. ما دمتم تأخذون ما لكم أعطوا ما عليكم. وللطيبين منكم من القلب تحية، ولتفرش دروبهم بالورد والياسمين، وتُعلق على صدورهم الأوسمة. أما المتقاعسون بغير وجه حق فليعودوا إلى ضمائرهم، وإلاّ فإن العدل سيتعقبهم، وسيكون لكل ظالم يوم، ولن يسكت الحق عن صراع باطلهم إن الباطل كان زهوقاً.

المقالة الثامنة

مشكلة الشباب في حرب لبنان

الأفق السياسي والأفق المثالي

مشـــكلة الشـــباب
في حـــرب لبـــنان

الأفق السياسي والأفق المثالي(١)

للحديث عن الشباب في ظروف الحرب اللبنانية، أهمية تفوق أهميته في ظروف السلم؛ هذا الجيل الذي قامت على أكتافه الأحداث، بكل توجهاتها ونتائجها. فمنذ سنة ١٩٧٥، تلوّن جيل الشباب في لبنان بلون الحرب والأزمات، وانعكست أوضاع البلد والمنطقة على مشكلاته وتطلعاته.

وقبل الحديث عن الانعكاسات الظرفية، وتفاصيلها، يجدر بنا أن نرسم المعالم الكبرى لجيل الشباب، شكلاً ومضموناً. فإذا كانت مرحلة الطفولة تمتد من تاريخ الولادة حتى الثالثة عشرة من العمر تقريباً، وهو سن البلوغ الذي تبدأ معه مرحلة المراهقة، فتمتد حتى الثامنة عشرة أو أقل أو أكثر بقليل؛ فإن مرحلة الشباب تعقب سنيّ المراهقة لتمتد حتى الثلاثين، وربما الأربعين، لتعقبها الكهولة، فالشيخوخة التي قد تستمر حتى أرذل العمر تعقبه الوفاة.

هذه التقسيمات العمرية على المراحل، إن صحّت تماماً بالنسبة

---

(١) محاضرة أُلقيت في مدينة صيدا عام ١٩٨٦، بدعوة من مركز صيدا الثقافي. نشرتها السفير يوم السبت في ٢١/٦/١٩٨٦.

للطفولة، وعلى وجه التقريب بالنسبة للمراهقة؛ فإن مرحلتي الشباب والكهولة تتداخلان. فقد تظل روح الشباب سارية في عروق الكهل، وشرايين بعض الشيوخ، من حيث المشاعر والميول، والطاقات والإمكانات؛ وقد تختنق هذه الروح وتذوي سريعاً، وإن كان ثمة ما يلفت النظر أحياناً، فشيخٌ متصابٍ، أو شابٌّ قد شاخ قبل الأوان.

ويبقى الشباب من هرم عمر الإنسان قمته، بينما تتمثَّل الطفولة والشيخوخة بأسفل الجانبين. وتظل فترة الشباب محطّ الآمال، ومبتغى الأماني، وفي أفول نجمها بداية اليأس. إنها حلم الطفولة الجميل، وفي إحياء ذكرياتها عزاء للشيخوخة.

وفي الوعي الشعبي، منتهى الفرحة العرس، كما قمة الأحزان المآتم. لذلك يقترن اسم الشاب باسم العريس، فيقال لمن ينتظر مولوداً «بفرحة عريس». ونتمنّى للطفل أن يعيش ويكبر، فيقال له «إن شاء الله بنشوفك عريس» و«بنفرح منك» و«وقت فرحتك» و«وقت بتصير شاب» و«إن شاء الله بتكبر وبتصير شاب وبنفرح منك» و«عقبال ما نشوفك عريس»! فالشباب من العمر زمان بهجته، وفترة الأفراح. وهو في الوقت نفسه جيل القوة، وجيل العطاء، وجيل الإنتاج.

بهجة الشباب تكمن في ميوله، وفي أهوائه وتحقيق رغباته. فبعد تفتّح غرائز المراهقين، وظهور ميولهم بشكل مرتبك، فوضوي وعشوائي؛ يظهر مع الشباب الاتزان، فيكتمل الذكاء، وتنمو قوى العقل، وتثبت معالم الشخصية.

مع الشباب، تكتمل المكوّنات الجسدية والفيزيولوجية وتتركز. والميزات النفسية تبرز وتأخذ وجهتها. ويبدأ العمل على تحقيق

ميول، وفي تحقيقها لذة وسعادة. فصاحب الميل يرى سعادته في شيء، فيعمل على تحقيقه. لذلك قيل: «**إنسانٌ بلا ميول، ملك بلا رعية**». والميول في أهم ميادينها تتطلّع إلى المرأة، أو السلطة، أو الفن، أو العلم أو المال...

وبعد أن تتركّز الشخصية بمكوّناتها الفيزيولوجية والنفسية، تتكامل بالمعطيات الاجتماعية، فيبدأ التفاعل الحقيقي مع المجتمع، بعد أن كان الطفل تابعاً لذويه، والمراهق رافضاً للأعراف والتقاليد. وتبدأ المشاركة الاجتماعية الحقيقية، في جميع المستويات وعلى الصعد كافة. فيلعب الشاب الدور الذي يرضي طموحه، أو يشبع غروره. ويبتهج بدوره بمقدار قناعته به، كما يفتخر بمركزه الاجتماعي الذي تبوّأه بعصامية، وعن جدارة.

وظاهرة البهجة الشبابية، لا تقلّ عنها أهميةً ظاهرة القوة. إذ يجد الشاب نفسه في قمة قوّته الجسدية العارمة، التي توجهها طاقة نفسية واثقة، وذلك على أساس مجموعةٍ من الميول التي بدأت تكوّن.

إن آفاق الشباب، **من البهجة والقوة والإنتاج**، تجعل منه مرحلة خصبة فوّارة. نجد فيها الطفولة بشيءٍ من ميولها ونزعاتها وغرورها، كما في تنافسها، وفي لهوها وبراءتها. ونجد فيها الرشد، بقوّته وتعقّله وتحمّله المسؤولية. مرحلة تتصارع فيها المؤسسات كافة لجذب الشبان واحتوائهم واكتساب القوة بهم.

لكن التطلعات الشبابية لا تتحقق دون مشكلات تواجهها. فكلما تعاظمت القوة، كبرت معها وفي وجهها عناصر مقاومتها.

فما هي أهم هذه المشكلات؟

أ ـ الصراع بين الرغبة والإرادة:

إذا كانت الإرادة هي القوة التي بها نقول «لا» لرغباتنا، فنكبح جماح الميول، ونمسك عن النزوات؛ فإن مرحلة الشباب هي المرحلة التي يتمثّل بها أعنف صراعٍ بين الرغبة والإرادة.

جوهر الإرادة مقاومة الرغبات، لكنما لا إرادة بلا رغبة دافعة تدفعها. من هنا كان تصنيف الرغبات بناء على التسلسل القيمي، الذي يدخل في تحديده الذكاء، وتدخل المعطيات الاجتماعية. أما رغبات الشباب فهائلة جامحة، لذلك تصعب المفاضلة بينها ويصعب الاختيار. ولا بدّ في النهاية من اختيار؛ كالاختيار مثلاً بين رغبة الجنس وإرادة العفة، وذلك في إطار المشاكل العاطفية. أو الاختيار بين رغبة الغنى وإرادة القناعة، في إطار المشاكل الاقتصادية. أو الرغبة في السيطرة والتحكّم، وإرادة تحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية. أو الاختيار بين الرغبة في الانفلات من القيود، وفي الحرية المطلقة، وبين إرادة الالتزام الديني أو السياسي.

في خضم هذه الصراعات، يسير الشاب على خيطٍ رفيعٍ فاصلٍ بين الاستقامة والانحراف. ويخلق هذا الوضع عند الشاب جواً من القلق الشديد، قد يدخل مباشرة في وعيه، أو يعايشه مَنْ كان حوله من الأقارب.

ب ـ توكيد الذات:

التركيز على «الأنا» ميل إنساني عام، يرافق جميع مراحل العمر

بدرجات وأشكال متفاوتة. فالطفل يُظهر أنانيته بجرأة، دون خجلٍ أو استحياء. بينما يحاول الشيخ تغليف هذه الأنانية بغلاف الحق الذي له على خلفه، من الأولاد والأحفاد، الذين يتوجب عليهم ردّ الجميل. أما الشباب، فتعبيه الميول الأنانية، رغم تأكيد الفيلسوف الألماني **«شوبنهاور»** على وجود ميلٍ أساسيٍ وحيدٍ عند الإنسان، **هو حب الذات، وحب أي شيءٍ من أجل الذات**.

ويلتفّ الشباب على الميول الأنانية بمحاولة توكيد ذاته. وتوكيد الذات، كحب السيطرة، يكون ميلاً طبيعياً في حال عدم وجودٍ العُقَدِ والنواقص. أما عند الشعور بالدونية، وبالنقص الجسدي، فيأتي توكيد الذات كما يقول المحلّل النفساني «آدلِر»، كمحاولةٍ للتعويض عن ذلك النقص أو تلك الدونية.

ويمكن لهذا التوكيد أن يسلك طريقاً إيجابياً، فينحو منحى الإعلاء، ويتمظهر بالإبداع الفني، أو التفوّق العلمي. وعلى الصعيد الاجتماعي، بالانتماء إلى النوادي الاجتماعية، والجمعيات الخيرية، لعمل الخير، وتقديم التضحيات، والبروز من خلالها.

لكن محاولة توكيد الذات، إذا ما منيت بالفشل، لأسباب مختلفة، تعود إلى سوء التكوين أو التعقيد النفسي، فقد تتجه بصاحبها اتجاهاً سلبياً، وذلك بالانحراف المسلكي، كالوقوع فريسة النوادي الليلية، واللهو أو القمار، كما بالانتماء إلى العصابات والجمعيات السرية، وفتح باب الصراع مع الدين أو القيم السائدة.

ج ـ المشاكل الأسرية:

الأسرة بكل أشكالها (تقليدية أو نووية أو متحوّلة)، تلعب دوراً

عظيماً في احتضان الأطفال وتنشئتهم. يمدّهم حنان الأم بالفيتامين النفسي، وتوفّر لهم رعاية الأبوين الغذاء العقلي إلى جانب الغذاء الجسدي. هذه الرعاية ليست مزاجية، إنما تتم وفقاً لقواعد وأصول، ترتبط بالتقاليد والقِيَم الاجتماعية.

عن طريق الأسرة يتلقى الولد التعاليم الاجتماعية، والضغوطات، فتمارِس الأسرة عملية الضغط على الفرد نيابة عن المجتمع. وعندما يبلغ الولد مرحلة الشباب، يكون قد تشرّب من أسرته أنماط السلوك المميّزة لشخصيته. **فالأسرة المفكّكة تصنع الأولاد المشردين أو المنحرفين.** وفي الأسرة المتساهلة، قد يسيء الأولاد استعمال الحرية المعطاة لهم. أما الأسرة التقليدية المتشدِّدة، على النمط الروماني القديم، الذي يكون الأب فيه حاكماً بأمره، فيقطف أولادها في الغالب ثمرةً مُرّة لهذا التشدّد. إن أحد أولاد أسرة متشدِّدة معروفة لدينا كان شديد البخل، بينما كان أخ له مسرفاً بجنون، وتقمّص ثالث شخصية أبيه، فتزوج وراح يلعب الدور نفسه.

وكون الأسرة وسيلة للضغط الاجتماعي على الشباب، فإن مجابهة حادة قد تنشأ بينهما، سببها اختلاف المعايير والمفاهيم. فالأسرة، بحكم العرف والتقليد، ترصد تحركات الأولاد البالغين، وتراقبهم، لجهة ميولهم الخاصة، ومجال تحرّكهم، وعلاقاتهم الجنسية. بالمقابل، فإن الأولاد، والمراهقين منهم على وجه الخصوص، يعانون من تبعيتهم الاقتصادية لذويهم، ومن الحدّ من حرية الرأي والتصرّف.

* * *

كل هذه التطلعات، والمشكلات الشبابية التي تمّ استعراضها بشكل عام، ليست ثابتة أو مطلقة في كل زمان ومكان؛ بل هي تختلف باختلاف الظروف المكانية والزمانية، وتتلوّن بألوانها. وبناءً عليه، فقد تركت الأحداث والحرب اللبنانية بصماتها واضحةً على هذه المشكلات، وتلك التطلّعات على السواء.

فكيف انعكست تلك الأحداث على جيل الشباب؟

عندما اندلعت الحرب اللبنانية عام ١٩٧٥، اندفع الشباب في بطونها كالسيل الجارف، وذلك بعد فترة طويلة من الضغط النفسي والاحتقان.

لقد سبق حملَ السلاح واللجوءَ إلى الخنادق والمتاريس، تأفّفٌ شعبي عام، وتململٌ من الأوضاع حتى الورم والانتفاخ. كما شعور بالاغتراب الوطني والاجتماعي والنفسي. كانت الأوضاع الاجتماعية قد بلغت حدّها الأقصى من الإفلاس، سياسةً وتربيةً وأزماتٍ اقتصادية ومعيشية. وانقسم الناس إلى قسمين: قسم يشعر بالظلم والحرمان ويطالب بالإصلاح والتغيير، وقسم يخاف التغيير ويتمسّك بالمكتسبات.

وسرعان ما تحوّل الصراع من وجهه الديموقراطي إلى العنف العسكري. فانبرت قوة الشباب في كلا القسمين، كقوة للتغيير، أو قوة لمنع التغيير. كان الهدف تحقيق المطالب، بغية تحقيق السعادة واستعادة البهجة المفقودة. حتى إذا ما قدّر النصر المأمول لأي من الفريقين، حصل بنظره الاستقرار، وتهيأت الظروف من جديد لعملية إنتاجٍ متوازن.

لكن أحلام التصحيح لم تتحقق، لا بل راحت تتبدّد. وحيث لم يتيسّر الوصول إلى الهدف، فإن التضحيات العظيمة التي بذلت، والتي نادراً ما أثمرت، قد ضاعت وذهبت هدراً. ولم تقتصر الحالة على ضياع التضحيات، بل حصلت انحرافات مسلكية رهيبة. فإلى جانب الشرفاء الذين ضحّوا بكل شيء، حتى بأنفسهم، في سبيل قضية أو قناعة، كان كثيرون يتحولون إلى قَتَلَةٍأو لصوص، ويبيعون أنفسهم للشياطين.

الهدف عند أصحاب التضحيات كان البناء، لكن الوسيلة كانت الهدم. **هدمٌ في سبيل البناء، لكننا نعجز عن البناء، فيستمر الهدم!**

هكذا زالت معالم البهجة من نفوس الشباب، فأينما تَوَجَّهتَ ترى القلق بدل الارتياح، والحزن والأسى بدل الفرحة والابتسامة. وحَلَّ الشؤم والاسوداد، والخوف من المستقبل المجهول. فقراءة الصحف تزعج وتقلق، والاستماع إلى نشرات الأخبار يسمِّم الأبدان. كلما لاحت في الأفق بارقة أمل، تعود فتطحنها جولات جديدة من الصراع والعنف، ليس بين الخصوم فقط، لا بل حتى بين الحلفاء وأبناء الصف الواحد.

من سن العشرين إلى سن الثلاثين، وحتى الأربعين، هذه السنوات التي يبذل فيها الشباب أكبر قوة من أجل أفضل إنتاج، ويتم خلالها الأكل من طيبات ما أحلّ الله؛ سنوات قمة العمر هذه ضاعت هباءً منثوراً. ذوت زهرة عمر أبناء هذا الجيل، وغابت المتعة عن نفوسهم، وبدأت تخيب آمالهم في ملاقاة السعادة.

أما قوة الشباب، وإن أمكن تحسّسها والشعور بها عن طريق

الانتصارات التي أُحرزت بشكل آني، إلاّ أنها كلها كانت في الحقيقة قوىً ممزّقة؛ فإن أي انتصار حُقّق لم يَدُمْ، وإن دام فثمنه كان أكبر منه.

وحيث انطفأت أنوار البهجة الشبابية، وتمزقت القوى؛ تدهورت عملية الإنتاج لحد المأساة. فتوقفت بعض القطاعات نهائياً عن العمل والإنتاج، وشُلّت قطاعات أخرى، وسرى الانحطاط التدريجي في ثالثة. فعلى الصعيد التربوي مثلاً، راح الجهل يحل محل العلم والمعرفة. قبل الأحداث كانت شرائح واسعة جداً من الطلاّب تشكو من ضعفها في اللغة الأجنبية، ومع الأحداث أصبحت تشكو من ضعفها في كل شيء، حتى في اللغة الأمّ. وبفقدان القدرة على إجراء الامتحانات الرسمية، بلغ الجهل حدّه الأقصى، عندما كان يكتفي الكثيرون بتسجيل أسمائهم على لوائح بعض المدارس، ويتقدمون بطلبات لامتحانات لم تَجْرِ، فيحصلون على إفادات ترشيح هي بمثابة شهادات رسمية. فكنت حيث ولّيت وجهك شطر طلاّب الجامعات، تلقى بسهولةٍ حملة إجازات جامعية غير حائزين على أية شهادة رسمية، عبروا من الأول الابتدائي إلى الجامعة دون الخضوع لأي امتحان رسمي.

خلاصة القول: إن عملية تهميش خطيرة لدور الشباب الحقيقي قد حصلت، كما حصل حرفٌ لقواه الفاعلة عن مسارها الإيجابي الطبيعي. ظاهر العملية قابل جداً للتضليل، باستعمال كل المصطلحات الإيجابية الممكنة. فإن كلماتٍ عديدة مثل: «**التحرير، والاستشهاد، والوطنية، وإفشال المؤامرة، والتوحيد، ومنع التقسيم**» هذا في جانب، وفي جانب آخر «**منع التخريب، ومنع التوطين،**

والإرهاب، **والحفاظ على الصيغة...»** إضافة إلى المشتركات، مثل التقزّز من: **«الخطف، والقنص، والتهجير، والقصف العشوائي، والقتل على الهوية...»** كل هذه المصطلحات، وغيرها الكثير الكثير، كانت كافية، وبغير وجه حق، لتبرير التضحيات الكبيرة والصبر على الآلام.

ربما كان لعملية التبرير هذه أن تحتل موقعاً متقدماً، وأن تتحوّل إلى قناعة فعلية عند الكثيرين، قوامها التضحية، والفداء، والموت من أجل الوطن (رغم اختلاف القناعات)، وذلك حرصاً على مستقبل الأجيال. فأطفال اليوم هم شباب الغد، ويتحمّل الكبار وِزْرَ شقائهم في السنين القادمة. فالواجب أن نزرع، نحن الكبار، ليأكل أبناؤنا.

لكننا لسنا الآن بصدد أي تقويم من هذا النوع، حتى لا نخرج عن موضوع الانعكاسات الذي التزمنا بتبيانه. فمهما نؤمن بزرع الأجساد، وإرواء تراب الوطن بالدماء، يَبْقَ ذلك الإيمان حلم المستقبل الزاهر، قَرُبَ ذلك المستقبل أو بَعُد. لكن الأمرَ أمرُ الحاضر لا المستقبل، والمقصود الوقوف على ضياع جيل شباب الحرب، لا سيما عقب الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢.

من الطبيعي في الأحوال العادية والأوضاع الطبيعية، أن تُحترم الكفاءات، وأن تُجلّ الإمكانات والمقدرات والاختصاصات، وفي حال تساوي المعطيات أن يُقدَّم الأكبر سنّاً، وأن يُثاب المستقيمون ويثنى عليهم. **ولكم كان مرّاً خلال سنيّ الحرب أن تنقلب الآيات بوقاحة**، فترى مراهقين يأمرون كهولاً، وأغبياء يحكمون أذكياء وأكفياء ويسوسونهم، وجهلةً يتحكّمون بعلماء، وشُذَّاذ آفاقٍ باعوا أنفسهم للشيطان وأمسكوا بمقاليد الأمور.

وعلى صعيد الرابطة واللحمة الاجتماعية، إزداد التفكك والتشرذم، وتفرّع الصراع من الوطنية إلى الطائفية، ومن الطائفية إلى المذهبية، ومن المذهبية إلى المناطقية، فإلى الأحياء والشوارع.

في تلك الأجواء الشاذة، المكروهة والمرفوضة، وفي غياب السلطة القمعية وفي غفلة منها، فُتح الباب واسعاً لتنامي وتعاظم التوجهات الدينية. وعاد الكثيرون ليروا في الدين الملجأ والخلاص، والطريق الصحيح الموصل إلى الفلاح، بعد أن باءت تيارات أخرى بالفشل.

ومهما كان الإقبال على الالتزام بالتعاليم الدينية شديداً، فإن ذلك الإقبال لم يكن كله، وعند الجميع، خالصاً لوجه الله. وسيكشف التعامل مع المتدينين النوايا، عاجلاً أم آجلاً، فيظهر الإيمان الحقيقي ويتميّز من الإيمان التعويضي، **فالمؤمنون حقاً هم الذين لا يعملون إلاّ الصالحات.**

إذن، وسط أجواء الخيبة، وفقدان الأمل بالحل، والإحساس بسلوك الطريق المسدود، واتهام القيّمين على القضية وتحميلهم مسؤولية النكبة، بالإضافة إلى التأثير الخارجي الناتج عن النصر الذي حققته الثورة الإسلامية في إيران؛ وسط ذلك كله فرّخت بذرة التديّن من جديد، ونَمَتْ بسرعة هائلة، وأعيد الاعتبار للقِيَم والتعاليم الدينية. هذا في الجانب الاجتماعي السياسي. أما في الجانب الاجتماعي المعيشي، والتعاملي، **فقد ظهر الدين بمثابة ضمانة قيمية.** ففي غياب السلطة الحقيقية الأساسية، ومع تعدّد السلطات الفرعية وتصارعها، وبعد أن أصبح الفلتان لا يُطاق؛ أصبحت الحاجة ماسة

إلى سلطة من نوع آخر. سلطة باستطاعة كل فردٍ أن يمارسها ذاتياً على نفسه ومع الآخرين، كون أحكامها صادرة ومعروفة: إنها سلطة الالتزام الديني، الممتدة من ممارسة الفرائض إلى إقامة الحدود[1]!

وحيث أن نزعة الشر كامنة في نفس الإنسان، فإن منحى التدّين، على عظيم حسناته، لم يَحُلّ الإشكالات عند الجميع. وإذا كان الهروب إلى الدين مطلوباً بقوة، كانتماء إلى الفضيلة والأخلاق، للعمل بوازع أحكامها، والتقيّد بمبادىء حلالها وحرامها؛ فإن الهروب الديني، بمعنى التمظهر الخارجي، بغية الاستفادة من مفاتن الحياة ولذائذها، قد ظلّ يفعل فعله السلبي عند الكثيرين.

* * *

كيف المخرج من هذا الضياع، وكيف الخلاص من ذلك التهميش أو الانحراف، وكيف العودة إلى الأصالة والاهتداء إلى الطريق القويم؟

الجواب الذي لا يحتاج إلى نقاش، ولا يحتمل أية مكابرة، هو أن استعادة العافية تتم حكماً، وبشكل تدريجي، بعد وضع حدٍ للحرب القذرة، وعند الاتفاق على حلّ أمني وسياسي، يرسم سياسة البلاد ومستقبلها، ويحظى بموافقة الجميع، أو الأكثرية، أو تفرضه فرضاً قوة مسيطرة.

وفي حال العجز عن التوصّل إلى حلّ، وهو احتمال مدعوم بالتجارب والبراهين، عند ذلك، وفي غياب الحل الجذري والسلطة

---

(١) تطبيق القواعد وتنفيذ أحكام الحلال والحرام.

الفاعلة الواحدة الموحّدة، **لا بديل لنا من اللجوء إلى الطرح المثالي، بمنحاه الأخلاقي، الخاضع لسلطة القِيَم وسلطان الضمير.**

عملياً، وعلى أرض الواقع، كل الأحزاب السياسية والتنظيمات، والحركات والتجمعات والفئات، لها مبادئها التي تسير عليها وتلتزم بها[1]. وعند التنظير، يطرح الجميع، وبدون استثناء، قِيَماً نبيلة، وأهدافاً سامية تتفاوت في اتساعها وفي شموليتها.

بين المنتمين إلى هذه التيارات السياسية المختلفة، تجد دائماً الإنسان الصادق، الملتزم بالقِيَم والأخلاق والأهداف. لكنك تجد دائماً أيضاً، الإنسان الكاذب، والانتهازي، الذي يستغل انتماءه لتحقيق مآربه الخاصة. عند الجميع إذن، يوجد أناس مستقيمون، هم **«الأوادم»**.

«الآدمي»، ببساطة، هو الإنسان المستقيم، الحسن السلوك والسيرة، الذي لا يقتل عمداً، ولا يسرق مال غيره، ولا يعتدي على أعراض الناس وممتلكاتهم، ولا يتوانى عن القيام بواجباته أو بما يزيد عنها. وإذا كان أخاً أو رفيقاً، فهو الأخ الوفي والرفيق الصادق المخلص. أما إذا كان خصماً، فهو الخصم العاقل والشريف.

هنا تنفع جداً التربية العقائدية، وينفع التوجيه العائلي، والإشراف الأسري كوسيلة من وسائل الضغط والضبط الاجتماعي. وهنا أيضاً، يلعب الالتزام الديني الصحيح (لا التعصّب الطائفي والمذهبي) دوراً إيجابياً عظيماً، وذلك عندما يكون الالتزام الديني

---

(١) حتى العصابات لها إلتزاماتها التنظيمية.

عبارة عن إيمان حقيقي لا تعويضي، وعندما يكون هروباً فعلياً إلى الدين لا هروباً بواسطته؛ باعتبار أن الالتزام الديني الحقيقي، والصحيح، يغني عن الحاجة إلى السلطة الزمنية، كما يغني عن أجهزة الرقابة الخارجية، ويحقّق الاستقامة في السلوك والتعامل، **بفعل الخشية من رب العالمين**.

وكلما كان الحلّ الجذري للمشكلات، بالوسائل الواقعية، بعيد المنال؛ كلما زادت الضرورة لطرق أبواب المثالية، حتى لو أدّى ذلك إلى التطرّف في الطرح والالتزام. على أن التعامل المثالي، والحل المثالي، ليس سهلاً. فالذي يقول ولا يفعل يسقط فوراً، أما الذي يقول، ويريد أن يفعل، ولكنه يعجز عن الفعل، بسبب استقواء المعوقات، فإنه يعاني بشدّة، ويعيش أزمة مرّة، أدنى درجاتها السخط، والقرف؛ وأعلاها اليأس، والذوبان النفسي المؤدي إلى الموت البطيء.

... وتمر الأيام، وتتغيّر حتماً مع مرورها الأحوال. وتبقى صورة «**الآدمي**» الصورة المثالية للإنسان الذي يمكن أن يتحمّل وزر الآخرين، في سبيل الخلاص، ومن أجل أن تعود العافية للوطن.

ويستمر الصراع بين الخير والشر. فعندما يتغلّب الشر يحصل الخراب والدمار، وعندما ينتصر الخير يحصل الإنماء والإعمار. ذلك يتم بشكل نسبي، تبعاً لظروف المكان والزمان؛ أما في المطلق، فإن **كفة الخير هي التي ترجح، لذلك يستمر الكون عامراً، ويتقدم**. والأمر مأخوذ دائماً على عاتق «**الأوادم**»، من المثاليين، الذين هدفهم تحقق الفرد الكامل في المجتمع الكامل، على الطريقة الأفلاطونية، إذ يقول

صاحب عالم المثل، أفلاطون نفسه: «**لا تطلب مني تحقيق المثال تحقيقاً كاملاً، لأن هذا التحقيق غير ممكن**».

لذلك يرضون بتحقيق المستطاع، وفقاً لنظرية المثال والنسخة، فيعملون أبداً لتقريب النسخة من المثال، ويكون هدفهم الدائم **محاولة الارتفاع بالأفق السياسي إلى مستوى الأفق المثالي**.

المقالة التاسـعة

هــذا الكـائـن...
جامع المتناقضات

هــذا الكائــن...
جامع المتناقضات[1]

أذكر عشيّة من عشيات سنة ١٩٧٨، اشتد فيها القصف العشوائي على حيّنا، أحد أكثر أحياء قريتنا الجنوبية هدوءاً ومُسالمة، حتى ظننّا أنّا لن نخرج من مخبئنا سالمين. كنا عائلتين من أربعة أزواج وأربعة أطفال، يحتضن كل كبير في حجره صغيراً، يحميه بصدره وجفنيه، متحلّقين على أنفسنا في مساحةٍ لا تزيد على المتر المربّع، ندسّ رؤوسنا مناطحة بعضها ببعض، ونشد قبضات أقدامنا في الأرض شدّاً. ومع كل قذيفةٍ تسقط، كنا نعصر أطفالنا بين أيدينا، زيادة في الحماية وإكثاراً من الوقاية؛ حتى إذا ما تعب جلاّدونا، وسكتت أصوات المدافع، خرجنا نتفقّد جيراننا، ونرخي بالحديث معهم أعصابنا المشدودة.

واخترنا أبسط الجيران حالاً، فجلسنا إليه نتبرّد ببساطته، إلى أن دخل علينا شخصٌ قلما عرفناه. وسألت جاري عنه، فقال فلان. وازددت حشرية فسألته ماذا يعمل؟ فابتسم قائلاً: إنه «شبّيح»!

(١) نشرتها جريدة السفير يوم الجمعة في ١١/٧/١٩٨٦م. وكان قد وُضع لهذه المقالة أيضاً عنوان آخر هو: «عالم الأشباح وعالم الشبّيحة».

كنت حتى ذلك الحين أتعامل مع مفردتين فقط مشتقتين من فعل **«شَبَحَ»**، وفي ذهني لهما صورتان: صورة الشبح (ج أشباح) المخيف، وصورة الحصان السريع الذي يشبح. أما صورة الإنسان «الشبّيح»، فلم تَنجَلِ تماماً في ذهني إلاّ بعد انقضاء عشر سنواتٍ من عمر المحنة الرهيبة[1].

كانت وتيرة الحرب تشتد وتتصاعد، وكانت مصطلحاتها تتحوّل بسرعة إلى صيغ المبالغة، كأفعال الهجرة والقتل والقطع، التي تحوّلت إلى صيغ **التهجير والتقتيل والتقطيع**. وشاع استعمال كلمات **سَلَبَ، ونَهَبَ، وأطلق، وفجّر، وأصاب، وحرق، وخرق، وجرف، وخطف**... إلى آخر المعزوفة التي تُسمع ألحانها يومياً من أبواق الإذاعات، وتكتب نوطتها على صفحات الجرائد والمجلاّت. على غرار ذلك، طالت صيغة المبالغة فعل **«شَبَحَ»**، وحل محله فعل **«شَبَّحَ»**، وأصبح **«التشبيح»** موضة هذه الأيام.

أما صور **«الشبّيحة»** فليست بعيدة عن صور الأشباح، فهي تنتمي إليها وتتفرّع عنها شكلاً وممارسة، كما تفرعت عنها لغة واشتقاقاً. إذ أن للأشباح صفات ولها في الظهور طرائق. **قيل فيها**:

إنها كائنات ذات أجسام دخانية شفافة، رؤيتها كالسراب، ومن يحاول الإمساك بها كالقابض على الماء تخونه فروج الأصابع.

إنها لا تدخل البيوت من أبوابها، بل تنسلّ إليها انسلالاً عبر النوافذ والثقوب. تكون هادئة وديعة أحياناً، وعنيفة متمرّدة أحياناً

---

(١) المتمثلة باجتياحات الجنوب، والقصف المتواصل لمدنه وقراه، إضافة إلى الحرب الأهلية البغيضة في لبنان.

أخرى. تصمت حيناً، فتظهر وتختفي دون أن تنبس بكلمة، وتنطق أحياناً فتقول كلاماً مفهوماً أو غير مفهوم، ناقلة تحذيراً، أو نبوءةً تتحقق أو لا تتحقّق.

يكون ظهورها على شكل سحابة من الدخان الأبيض، أو الأسود، تتشكّل شيئاً فشيئاً حتى تصبح جسداً. أو تظهر فجأة متجسِّدة على صورة رجل أو امرأة. أما معالم الوجه فيندر وضوحها، وإن بدت فغالباً ما تكون مشوّهة مخيفة. عندما يخطو الشبح يكون ساكت الخطوة. وقد يكون لخطواته وقع كوقع أقدام الإنسان.

أصول الأشباح نفوس إنسانية راحلة عن الحياة الدنيا. وهي إما نفوس فقدت أجسادها قسراً، بحادث قتلٍ أو غرقٍ أو خنقٍ أو حرقٍ أو اغتيال؛ لذلك تكون عند ظهورها قلقة عنيفة متمردة، تفعل فعلها في المنازل التي تحل فيها، فتصرخ أو تئنّ أو تعبث بالأثاث والمحتويات، وذلك من أجل غايةٍ أو هدفٍ إذا ما تحقق انصرفت.

أو تكون نفوساً عادية رحلت عن الدنيا وظلت تشعر بالحنين إليها، فتتجسّد كلياً أو جزئياً كلما رغبت في العودة. يراها أناس توفرت فيهم قدرات فائقة من صفاء الذهن، يستدعونها فتلبي النداء، وتجيب عن الأسئلة الموجهة إليها أو لا تجيب. وتنصرف بعد استئذانٍ أو بغير إذن.

وربما كان الشبح هو الجنيّ نفسه، من المخلوقات غير المرئية التي أثبت وجودها الدين، والتي يمكن أن تتجسّد في صورة إنسانٍ أو حيوانٍ أو نبات. وأحياناً في صورة الجماد. وتراث الشعوب مليء بالأساطير والحكايات التي تروي قصص الجن، وعلاقاتهم بالبشر،

من الذين شاهدوهم أو تحدّثوا إليهم، أو أصابهم منهم أذى، أو استعانوا بهم وسخّروهم لمهام يعجزون عن القيام بها.

هذه الكائنات غير البشرية، **من الجن والأشباح، لا** تظهر في الضوء ولا في وضح النهار، إنما تحت الأضواء الخافتة أو في الظلمات. يراها أناس من أصحاب القدرات، كالشفافية، والصفاء الذهني، وقوة الإرادة. تكون هي تابعة لهم، ويكونون هم وسطاء بينها وبين بني البشر. وسن المراهقة هو أكثر مراحل العمر قابلية للوساطة، قسراً وغصباً عندما تحل فيهم عنوة، أو بالإرادة والاختيار عندما يستحضرونها اختياراً. فقد يتسلّط شبحٌ أو جنيٌ على أحد المراهقين، ليحقّق عن طريقه ضالّته، فيعاني ذلك المراهق من تسلّطه الأمرّين. وغالباً ما ينتهي المتّصلون بالجن والأشباح نهايات سيئة، حزينة ومأساوية، كالإصابة بالمسّ والجنون، أو التشرّد، وربما الانتحار!

الشبح!

هذا الكائن جامع المتناقضات...

الخفي الظاهر، الصامت المتكلّم، الهادىء المتمرّد، المنقذ المؤذي والمسالم العنيف؛ بكل سوالبه وموجباته، أحياناً تراه الملاك الطاهر، وأحياناً تراه الشيطان الرجيم! **أين منه «شبّيحة» هذا العصر والزمان؟**

لا نبالغ إذا قلنا كمواطنين عاديين: لقد مرضت قلوبنا من كثرة «التشبيح» علينا، وضاقت بنا أرواحنا. فكلما حاول الواحد منا أن يمدّ بصره في فسحة الأمل، يرى العيش يضيق بها، ويخنقها اليأس وتبددها الظلمات.

و«التشبيح» في أحسن حالاته كذب ونفاق. ربما استفادت منه قلّة من الناس «فعلى جريرة الورد يشرب العليق». لكنه لا يصب في النهاية إلاّ في خانة المصلحة الذاتية، والنفع الفردي، الذي لا يتحقق من دون استغلالٍ، أو ظلمٍ، أو تسلّطٍ على الآخرين؛ ومن دون تجاوزٍ لهم أو استهانةٍ بحقوقهم وكراماتهم.

«التشبيح» هو أن تبتزّ غيرك، أن تسلبه حقّه بحجة مساعدته للحصول عليه، أو بحجة الحصول على مالك وحقّك. إنه الكسب غير المشروع، والوصول غير المبرّر، والتجاوز العابث بالتدرّج الطبيعي وبالمساواة في الحقوق، مادياً كان ذلك الكسب أم معنوياً، كسباً لمالٍ أو لموقع، لحالةٍ أو لفرصة.

و«الشبّيحة» تراهم في كل مكان يهيمون. فالسياسي الذي يكذب على شعبه شبّيح، والتاجر الذي يخدع زبائنه شبّيح، والموظف الإداري الذي يستغل سلطة الوظيفة لجمع المال وتكديس الثروة شبّيح، والمعلّم الذي لا يقوم بواجب التربية والتعليم شبّيح، والمتظاهر بالإيمان والتديّن مع سوء الإلتزام شبّيح، والعقائدي الذي نذر نفسه علانية للدفاع عن المظلومين والمقهورين وهو الممالق المستهتر سراً شبّيح، وكل من لا يُحصّل قوته بعرق جبينه شبّيح!

إنه لا شرف للإنسان أرفع من شرف الصدق، ولا ذلّة أو خسّة أدنى من الكذب والرياء. لقد كبر مقتاً عند الله أن يقول الناس ما لا يفعلون.

* * *

رحم الله جدتي؛

كنا نسألها: هل رأيتِ الجن؟

فتجيب واثقة من نفسها: معلوم! لقد رأيت وسمعت وحصلت معي ومع غيري العجائب.

نسألها: فما بالنا لا يظهر علينا واحد؟

فتستعيذ بالله قائلة: «**اليوم صارت الناس جناني**» (جِنّة).

إذا كان زمن الأشباح قد عرّاه التقدّم العلمي والتقني، فولّى غابراً إلى غير رجعة؛ فإن زمن «الشبّيحة» قد حلّ محله وترحرح.

وإذا كانت الأشباح تنشب مخالبها في قلة قليلة من الضحايا البشرية، تتضرر من حلولها فيها واستعمالها لها؛ فإن عالم «الشبيحة» بحرٌ في العمق وأفقٌ في الاتساع. ينتشرون كقرية النمل، أينما وضعت قدمك تدهس، ولكنك بالنتيجة أنت الذي تُعقص!

صحيح أن «الشبّيح» يقتبس من الشبح مزاياه، في الضحك والبكاء، والظهور والخفاء، والأخوّة والعداء، والانهزام والاستقواء. يتجسّد عملاقاً من لا شيء، أو يذوب متلاشياً كفصّ الملح، أو يتسلل عبر الثقوب والدهاليز المظلمة.

صحيح ذلك كله؛

لكننا مع ذلك كله بتنا **نترحّم على زمن الأشباح، فإن زمن «الشبّيحة» أدهى وأعظم!**.

المقالة العاشرة

مغدوشة المساء والصباح
لماذا هي، وما هو المصير؟

مغدوشة المساء والصباح(١)

لماذا هي، وما هو المصير؟

في المساء، غفت عيون مئات الأطفال في أحضان أمهاتهم، بعد أن رتبوا الكتب والدفاتر وأقلام التلاوين. وفي الصباح، ضاعت طرقات المدارس، وتشرّدت الصفوف والمقاعد، ما بين لعلعة الرصاص ودوي القنابل. وبدل أن تحتضن الأمهات الأطفال، راح الأطفال يلفّون أذرعتهم النديّة حول أعناق الآباء والأمهات على السواء، يعصرونها عصراً، يحتمون ما بين تحت الذقن والضلوع. باتوا للحدث الفظيع لا يتمايزون، اختلط الخائف بالمخوّف، وخرج الخوف من حيرته ليحل في نفوس الأطفال والشيوخ والنساء، كما في قلوب الشباب.

في المساء، أطبق أكثر من عشرة آلاف إنسانٍ من الأبرياء أجفانهم على أحلام العيش المشترك، والتشبّث بالأرض. وفي الصباح، كانت نارٌ موقدة تكوي مشاعر المتشبثين، وتبدّد أحلام القابعين القانعين.

---

(١) نشرتها جريدة النهار يوم الخميس في ٢٥/١٢/١٩٨٦. مناسبتها أننا العام ١٩٨٦ كنا مهجرين من إقليم التفاح هرباً من حمم القصف الإسرائيلي، وقد طلبنا لأنفسنا الأمن والسلام بالالتجاء إلى بلدة مغدوشة والسكن فيها. لكن حرب المخيمات امتدت إليها وحصدتها، وكان ما كان مما لست أنساه!

في المساء، ركنت للسكينة نفوس أكثر من مئتي عائلة، من الوافدين الذين حلّوا ربوع مغدوشة ينشدون الأمن والسلام، بين بحرٍ هادئٍ وقمرٍ خفيف الإنارة، هرباً من هدير الحمم الإسرائيلية، ونيرانها المصبوبة على قرى إقليم التفّاح. تركوا خلفهم بيوتاً مهدومة، وأرزاقاً محروقة، وأقارب أرداهم رصاص القنص أو شظايا القصف. واطمأنوا لولوج مغدوشة في حالة السلم. وإذا بهم يتندّمون في الصباح على أمسهم ومسائهم. لم تكفهم قساوة الأعداء في وجوههم، حتى كان الطعن في الظهر أقسى، وكان ظلم ذوي القربى أشد مرارة، فخرجوا من جديد، يستجيرون من الرمضاء بالنار.

ترى، أليس للحرب قواعد أو أصول؟

أم أن هناك شريعة لا يُعرف ما دين ربّها، ينام الإنسان معها آمناً مطمئناً، ليستفيق تائهاً مشرداً وبلا مصير! أما البيوت المستقرة في هدأة الليل، فيطلع عليها صبح أعمى، ذو نارٍ حاميةٍ حاقدة غير مضيئة، تبعثر حجارتها وتلتهم أثاثها؛ صبح لا يسمع فيه سوى صراخ الأطفال وعويل الأمهات، وخنقة الآباء بغصةٍ أليمة، ودمعٍ لاهب يحرق جنى العمر واليدين.

الكل محاصرون، الكل مقيّدون. سلاسل طلقات الأسلحة الرشاشة تطوّق أعناقهم، وأحمال قذائف «الآر. بي. جي» تحني ظهورهم، وأثقال رمايات المدافع تجثم فوق صدورهم.

في إحدى زوايا غرفة نوم، ما بين الخزانة والسرير، في مترين مربعين من المساحة، سبعة عشر شخصاً يتراصّون. ثلاث عائلات وعجوزان. أعمارٌ تتراوح بين الأيام العشرة والسنوات التسعين. أحياناً

بأجسام ممدودة ورؤوس مرفوعة، وأحياناً بأكتاف بارزة وجماجم متخفية تحت الكفين وبين الساعدين، وأحياناً أخرى يختلط الكعب بالرأس، وينتظر الكل فرصة للتنفس فلا تأتي. وفي وسط صخب الجحيم تريد إحدى العجائز أن تدخل المرحاض، فيصرخ الجميع في وجهها: نامي! ويطلب أحد الأطفال «سندويش مربى»، ويصرّ على المربى دون غيره، وبين أمه والمربى أمتار قليلة، لكنما بينهما المسافة القاتلة، فلا تتجاسر. وهيهات أن يقنع أحدهما الآخر بالتنازل عن مطلبه.

إحدى الأمهات كانت تصرخ: **«يا عذراء»**، فيردد أطفالها: **«يا عذرا متنا»**. وتنادي أم ثانية ملتصقة بها: **«يا ألله، يا محمد، إرحمِ الأطفال»**. فيسأل الأطفال: هل سنموت؟ وتناشد ثالثة دون جدوى **«دخيلكم»**!

صورة مأساوية رهيبة، ليس فيها أدنى مبالغة، بل كانت الحقيقة أشد من ذلك. وقد اختلطت في نفوس الرجال أصوات الأطفال باستغاثات النساء، بلعلعة الرصاص، بأوامر المهاجمين، بنداءات المدافعين. من كان بين يديه طفل أراد أن يخرج به؛ ومن استطاع خرج دون أن يعرف مصير أهله في الشقة الثانية، أو مصير ولده الذي استضافه أحد الأقارب أو الجيران. فكثيراً ما خرج أبوان تاركين طفلاً لا يعلمان عنه شيئاً. وكثيراً جداً ما خرج بعض العائلة دون أن يُعرف مصير البعض الآخر، أو هام شيخ على وجهه في حُرَج، أو بقيت عجوز وحدها تحرس متاعها.

ألم يكن من حقّ هؤلاء جميعاً، وحق الآلاف أمثالهم، أن يخرجوا في رحاب الله الواسعة، قبل أن تضطرم نيران الأخوة

المتسللين؟ ألا يستحقون إنذاراً، أو صفّارة، أو صرخة تخويفٍ لتحييد الأطفال والعجّز؟ أم أن المقصود تلقين النائمين على حرير المسالمة، والعيش المشترك، ورفض الفرز والتقسيم، درساً لن ينسى؟

الكبار في السياسة يتنادمون، يشحطون قلماً، أو يشطبون خطاً، أو يضيفون كلمةً، إسماً، أو ينفون وجوداً أو وجوهاً؛ فيتحمّل الناس العاديون الترجمة الفعلية الميدانية لأعمال الشطب والنفي والإضافة. وتتحوّل البيوت إلى خرائب، والشوارع إلى مدافن، والمنازل المستباحة لا يتبقّى من ركام أثاثها إلاّ مقدار ما تبقّى عند القيّمين من إيمان، ومن عقيدة تستحرم إيقاع الضرر بالآخرين والاعتداء عليهم.

كل هذه الحالات والأوضاع، من الناس من عاشها ليوم، ومنهم من عاشها لبضعة أيام، ومنهم من ظل يكتوي بنار حريقها أسبوعين كاملين. والذي استطاع الخروج من البلدة الجريحة بقدرة قادر، دون أن يكتشف أو يرى سراً غير الثقب الذي خرج منه، ثم قُيّض له أن يدخلها في هدأةٍ من هدآت القتال، بحثاً في بقايا منزله عن ثوب يستر به جسده؛ استطاع أن يرى الشجر المقتول، والكلاب التي سُعِرَتْ من أكل لحم الميت، والأعمدة الرابضة بين رصيفين، والسيارات التي انحرفت وتحطمت، والزجاج المبذور في كل مكان، والأبواب المرتمية تحت عتباتها، واليافطات المرسومة بالدخان الأسود حداداً مريعاً، والتجاويف التي لا تعدّ، والصمت الجاثم فوق الجثث الهامدة التي ما زالت راقدة بلا معالم، في هذه الزاوية أو تلك؛ ذلك الصمت الذي تقطعه من لحظة للحظة رشقات القنّاصة. أما مظهر الحياة الوحيد، فتمثّل بدجاجاتٍ قليلة العدد، خرجت من أوكارها

نزعى، وتنقر الحب والديدان، مستغيلة في خروجها من اتفاق وقف إطلاق النار!

ويبقى السؤال لماذا؟ وما هو المصير؟

أما الإغراق في التحليلات فلم يعد يجدي نفعاً، مهما كثرت الأقاويل عن الصفقات، ومحاولات التمدد، والأهداف التقسيمية، والاتفاقات على رسم الكانتونات، والتمهيد للتوطين، والتواطؤ الذي لم تقدَّر عواقبه، والإهمال الذي ليس في مستوى المسؤولية، والوعود والتطمينات الفارغة والجوفاء!

ومهما تعددت الشائعات، فإن تلك التحليلات تبقى شأن الساسين. أما المغلوبون على أمرهم فيتساءلون، ينامون ويتساءلون، يستيقظون ويتساءلون، قبل الأكل والشرب وبعده يتساءلون: ما هو مصير البيوت التي هُدِّمت، والمدارس التي بُعثرت، وموارد الرزق التي قطعت، والضحايا التي شُرِّدت أو قُتِلت؟

وما هو مصير الرهان على العيش المشترك، ووحدة الأرض والشعب، والأمل في حياة رغيدة، ومستقبل يلغي سلبيات الطائفية ليبقي على إيجابيات الطوائف؟

لا جواب إلاّ بالإصرار على إعادة البناء، ودفع الدم في العروق، ونفخ الروح في الجسد، وحبك الوصال بعد تقطيع الأوصال.

لا شك أن مرور الزمن سيسدل ستائره على هذه النكبة كما سدلها على غيرها من النكبات، وستستمر الحياة، وتعود بأحسن مما كانت عليه، ربما، **لأن إرادة الحياة هي الأقوى!**.

المقالة الحادية عشرة

روضة رسمية لأطفال الجنوب

روضة رسمية
لأطفال الجنوب[1]

ليس العَرَق المتصبّبُ لِحُمّى، كالعرق الناضح ثمرةً لجهد، الفائح رائحةً لعطاء.

ما بين لهيب الحمّى وبرودة عرق الجبين؛

ما بين حمّى الكدح المتعثّر بأوحال النفع والأنانية، وبين انتعاشةٍ مشرقةٍ تَشِعُّ من جبين طفل؛

ما بين الزرع والقطاف؛

ولجنا في روضة أطفال مدرسة الإصلاح الرسمية، ورحنا نعانق البراعم.

مرحى يا أطفال صيدا،

مرحى يا أطفال الجنوب؛

(١) كُتبت هذه المقالة بمناسبة أعياد الطفل والأم والمعلم، للعام ١٩٨٨م، في خضم التحدي الذي كانت تواجهه المدارس الرسمية، التي نتحيز لها ونتعصّب. وكان ذلك إثر احتفالٍ أقيم في مدرسة الإصلاح الرسمية المختلطة، التي تضم صفاً نموذجياً لتلاميذ الروضات. نشرتها جريدة السفير يوم الثلاثاء في ٣/ ٥/ ١٩٨٨.

من هو الحاقد البومي الذي نحى التعليم الرسمي إليكم؟

نطمئنكم نحن بخير، وأنتم أيضاً بألف خير وخير. أطفال صور يسلمون عليكم، ولكم من أطفال النبطية ألف تحية وسلام.

يا أطفال الإصلاح، يا أطفال كل المدارس الرسمية، لا ضياع فيكم ولو تشرذمتم، لا ضياع لكم ولو تشردتم.

يا قطيع الحملان ما أودعكم؛

الخوف يجمعكم، والحزن يربطكم، ولا اعتصام لكم بعد حبل الله إلاّ بالوطن. واحداً ترجونه، موحداً تبغونه. أنتم جذور شجرته، ومنكم جذعها، وفي وجوهكم براعمها. براعم تتفتّح عن براعم. ويبقى إطاركم رسمياً، ويبقى فوحكم وطنياً!

وبعد السّلام عليكم؛

ها نحن في روضة أطفال رسمية. روضة أطفال حقيقيّة.

كيفما التفتّ صور؛

للفصول صور، وللطيور صور.

وللأسماك والزواحف وكل الحيوانات صور.

صور وألوان؛

للأرقام صور وألوان، وللحروف صور وألوان.

أشكالٌ وألوان؛

أشكالٌ من الدوائر، وألوان من تيجان الزهور، وأجنحةِ الطيور.

ألعابٌ ولعب؛

حقول أزهار وغابات أشجار.

لوحات طفولية، مناظر طبيعية، وقصور ورقية مشيدة من علب التبغ المرمية!

في الأجواء دفء خيطان الصوف، وفي الأنسام رفيف نعومة الريش.

وعناقيدُ تتدلّى؛

ثمار معلّقة، لا فرق، طبيعية أم اصطناعية. وأمام ناظريك عرائس طفولية.

كُلٌّ من البراءة تُنشِدُ للحواس الخمس؛

وتغني للأم في عيدها، وللطفل في ربيعه.

ثم تُنغّم الحروف، وتُلحّن الكلمات، امتثالاً لحادقةٍ رؤوفة حنونة، واستجابةً لرائضةٍ انشدّوا إليها بابتسامة الأم لرضيعها.

كلهم ينشدون علماً، ويغنون فناً ومعرفة، على قدر عقولهم والكواهل.

ألا بوركت أيها المعلّم الحيّ الضمير؛

نقوم لك، نوفّيك التبجيل، نوشك أن نرى فيك الرسول.

وبعد، وفي مواكب آذار، وربيع أعياد الطفولة والأمومة، وحياة الزنابق الشامخة رونقاً وحلاوة. النابتة في تربةٍ تغذّت بالشهادة.

ووفاءً للشهادة؛

نعِد بالتضحيات، بعد أن أرّق الجفون السهر.

لم نَنَلْ كل الأمنيات، فالدرب شاق وطويل، ولنا بعدد الأحبة حسّاد، وأكثر!

وبرغمه، أنبت التعليم الرسمي متفوّقين، متفوّقين في الإنشاء، متفوقين في الإلقاء، ومتفوّقين في الفن والرياضة وكل أنواع العطاء.

فاطمئني أيتها الأم بالأ، معلّمونا لا زالوا أوفياء، بالقدرة والذكاء. أما من باع نفسه وضميره، فاللعنة تلاحقه، تحل في وجهه. ومن كان مريضاً فالله يشفيه. ومن كان أعمى فليس على الأعمى حرج. قد أفلح من تاب مخلصاً، وفي ضميره مستقبل الأبناء كلهم لا مستقبل بنيه فقط، وفي مقلتيه خارطة الوطن كله وليس فقط مواطن الغنم والثراء.

ولا سلام على المتقاعسين، الذين يأكلون مستقبل أبنائنا بالباطل. لا سلام عليكم، وإن كنا نحب حتى أعداءنا.

ويا أيها المتخاذلون؛

لئن ظُلمتم من واقعٍ، فلا تظلموا أطفالنا.

ولئن أوجعتكم ظروفٌ، فلا تصبّوا جام غضبكم على أولادنا.

ولئن سوّلت إليكم أنفسكم، وأغواكم مالٌ أو تجارة، فلا تتاجروا بمستقبل أجيالنا.

ولن يرحم التاريخ العابثين.

* * *

ويبقى للطفل في منظورنا أمان:

الأم الوالدة التي كوى أجفانها سهر الليالي.

والأم المدرسة التي ناءت بأعباء النهار.

وعندما يرى المعلّم في وجوه تلاميذه صُوَرَ بنيه، يتواصل سهر الليل مع يقظة النهار ويثمران. فَيَلِجُ في الخير الخير، ويزيد في العطاء العطاء.

ولنذكر دائماً وأبداً، أن الأطفال هم آباء الرجال. فكما تولد من البذرة النبتة، وتنشأ عن الشتلة الغرسة، ثم تنمو الغرسة بعناية أنامل المربي وأهداب دينه وأخلاقه، فتعطي شجرة جذورها في تراب العلم، وفروعها في سماء المعرفة؛ هكذا ينمو جسد الطفل، كما ينمو عقله وتنمو مواهبه وكل شخصيته، فينشأ عنه الرجل الذي هو على صورته، ومن بضاعته.

والحرص على الأطفال، حرص على الرجال، وحرص على الأجيال. وفي بناء الحاضر بناء للمستقبل. وبناء للوطن.

من وعى ذلك في صفاء نفسه، وعمل به في جميل سلوكه، كان صالحاً. أما عمل الصالحات فليس بالشيء القليل. فالله نفسه ما أحب المؤمنين وحسب؛ بل أحب الذين آمنوا وعملوا الصالحات! «**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية**».

المقالة الثانية عشرة

أيادي الطحين البيضاء

أيـادي الطحين البيضاء[1]

«الزحف» في القاموس العسكري من المصطلحات المهذبة نسبياً، ربطاً بالأعمال الحربية والعسكرية. فالجندي، أو المتدرب على استعمال السلاح، يزحف عقاباً، كما يزحف وقاية أو تسللاً.

وهو من المصطلحات الضخمة التي ترهب الأعداء، عندما يتعلق الزحف بالجيوش الجرارة التي تزحف كالجراد. أو يكون التعبير شعاراً عقائدياً، مربوطاً بالآخرة والمصير، وتهتف به الجماهير المحشودة، كالزحف نحو القدس!

ولقد تعرض الناس في هذه الحرب الأهلية لشتى ضروب القمع وكل أشكال الإهانات، دون أن يخطر بالبال استغلال مصطلح «الزحف» خارج مجال «العسكرة».

---

(1) نشرت هذه المقالة في مجلة أخرى، وتحت عنوان:
«زحفاً زحفاً نحو الخبز».
أما مناسبة كتابتها، فكانت أزمة الرغيف، التي عاشها اللبنانيون، نتيجة المتاجرة بالطحين، الذي كانت تدعمه الدولة، بينما تخفيه الأيادي السوداء، التي يمضها بغبار، مصادرة واحتكاراً.
نشرتها جريدة السفير يوم الجمعة في ٩/ ٦/ ١٩٨٩.

وكان الشائع في الحقل النفعي، والانتهازي، أن يزحف وصوليٌ ذليل، على أعتاب متنفِّذٍ مستكبر، بغية الحصول عن طريقه على المال، أو السلطة، أو عليهما معاً. تماماً **«كماسح الجوخ»** الذي لا يتورّع عن تحقير نفسه ليُلبسها ثوب عزٍّ هو في نظر العصاميين ثوب ذلٍّ وقماءة.

كل الحكاية وما فيها، أن شخصاً عفيفاً محترِماً لنفسه، قصد فجراً أحد الأفران، طلباً لربطة خبز يسدّ بها جوع عياله، والزمن قد عزّ فيه الرغيف، بسبب أساطين الاحتكار والاختلاس والسمسرة والسوق السوداء.

ووجد صاحبنا الفرن مقفلاً، وهمّ بالعودة خائباً، لولا أن نظر وفوجىء بربطة خبزٍ تخرج من تحت الباب المعدني، تبعتها يدان تتمسكان بها تَمَسُّكَ الأم الخائفة بولدها. وتبع اليدين رأسٌ، ثم جسم يلامس الأرض خرج من تحت الباب زحفاً!

المشهد غريب يشد الانتباه، فتقدم طالب الرغيف مراقباً، آملاً في حلٍّ ومخرج. وإذا بالمشهد ذاته يتكرّر، وإذا بأناس يدخلون من تحت الباب زحفاً، ملوّحين بأوراق الخمسمئة ليرة. ثم يخرجون زحفاً أيضاً، متأبطين خبزاً، دون أن يلاحظ على وجه أي واحدٍ منهم أية علامة استياءٍ أو امتعاض.

هنا تفاقمت المشكلة وتعقدت. وفكّر الرجل في نفسه: أأزحف نحو الخبز مثلهم، أم أحترم نفسي كعادتي وأبقى جائعاً؟ أيا ليت الفرن كان مقفلاً فعلاً وما خضعت لمثل هذا الامتحان!

ونادى في الزاحفين: **«أما من زاحفٍ عني يخرج بربطتين؟»** فلم

يلتفت إليه أحد، غير فتى كاد ينطق بالموافقة مشترطاً قبض الألف بدل الخمسمئة؛ لولا أن جاء دوره في الزحف، فنهره الفرّان من الداخل وجرّه ركب الزاحفين.

«**يا للمهانة! يا للإبتزاز!** كم مرة قبلت مرغماً أن أقف بالطابور ساعات على محطات الوقود لأروي رمق خزان سيارتي. وكم وقفت منتصف الليالي، ساعات وأكثر، على أبواب المخابز، أما أن يبلغ الأمر الزحف، **فلا!**».

وصرخ في الزاحفين دخولاً وخروجاً، أن اخلعوا هذا الباب المحكم التثبيت على فتحةٍ ارتفاعها عشرون سنتمتراً، فتخلعوا بذلك عنكم ثوب الذل والمهانة! فلم يردّ عليه أحد.

ثم تقدم وصرخ في الفتحة نفسها: «أيها الفرّان المتكالب الحقير اخرج... ل...» فلم يتنبّه لصرخته أحد. ونظر حواليه فلم يرَ إلاّ زحفاً بالاتجاهين، فصفع جبينه، وقفل عائداً إلى بيته يائساً ممقوتاً، وهو يقول، لكن دون أن يسمعه أيضاً أحد:

«**ألا أيها الناس، ألم يعد يوجد في هذا البلد مكانٌ لإنسانٍ يحترم نفسه؟**».

أم أن على الشريف أن يعيش مقهوراً أو يموت جوعاناً؟

أم نعزّي النفس بالقول: عاش نظيفاً ومات نظيفاً!

على أن لا تكون النظافة يداً بيضاء، **فما أكثر الأيادي التي بيّضها غبار الطحين!**.

المقالة الثالثة عشرة

إرحمــــوا أطفـــال
مدرسة «معروف سعد»

إرحموا أطفال مدرسة «معروف سعد»[1]

إنما تُستمطرُ الرحمات في غالب الأحيان على الميتين من بني البشر، لكنما تجوز الرحمة، وربما تتوجب على الأحياء «الطيبين»، من المظلومين والمحرومين، والمقهورين والمعذبين، والمعتدى عليهم من دون ذنبٍ أو سبب.

ففي صباح سنة ١٩٨٨، استيقظ أطفال مدرسة «معروف سعد» الرسمية على هدير أمواج بحر صيدون. جمعوا كتبهم وأقلامهم وانطلقوا إلى مدرستهم ليتعلّموا أبجدية ذلك العام، فلم يجدوا للمدرسة أبواباً يدخلون منها، فعادوا إلى بيوتهم ولم يتعلّموا.

وفي صباح سنة ١٩٨٩، استيقظ الأطفال الغلابى على أصوات صيحات المآذن، ورنين أجراس الكنائس، يضجّ بهم حماسهم،

(١) نشرت هذا النداء، جريدة السفير الغراء، يوم الثلاثاء، في ١١/١/١٩٩٤. وكان قد تم توجيهه إلى من بيدهم الحل والربط، بعد أن طفح الكيل من الاعتداءات التي كان يقوم بها مجهولون على معلمي مدرسة «معروف سعد» الرسمية، وعلى بنائها، على مدى أكثر من خمس سنوات متتالية، ذاق خلالها التلاميذ وذووهم والمسؤولون التربويون الأمرّين.

وقصدوا المدرسة، فوجدوها بلا مشارب، وهم العطاشى للحروف والكلمات، فعادوا ولم يتعلّموا.

وفي صباح سنة ١٩٩٠، نهض الأطفال على وقع أقدام أهل الجنوب، وهم يعبرون إلى العاصمة بيروت، طلباً لكل شيء. واتجهوا إلى مدرستهم ليستضيئوا بنور علمها، فوجدوا كل شرايينها للماء والكهرباء والهواتف مقطّعة، فاتسعت حدقات عيونهم وتطاولت، وعادوا ولم **يتعلّموا**.

وفي صباح سنة ١٩٩١، استيقظ الأطفال على نداءات آمالهم والأماني، واندفعوا باتجاه مدرستهم، فرأوا أسوارها وقد سقطت وتهدمت، وصارت بلا حماية تحميهم وترد عنهم شرور الأيام وأذيّات الزمان، فعادوا خائبين ولم **يتعلّموا**.

وفي صباح سنة ١٩٩٢، هبّ الأطفال مذعورين، على أصوات الكوابيس في أحلامهم، وأسرعوا إلى مدرستهم، فوجدوها ضحية، وقد تسرب السمّ إلى دم معلميها، فاغرورقت عيونهم بالدمع مما شاهدوا، وحملوا أقدامهم ورجعوا إلى بيوتهم **ولم يتعلّموا**.

وفي صباح سنة ١٩٩٣، فتح الأطفال عيونهم من دون أصوات. وتسلّلوا بهدوء إلى مدرستهم ليسترقوا منها العلم، فما وجدوا في المدرسة أحداً، غير أكوام إطارات السيارات الممزّقة، وبعض آثار الجلاوزة، يبحثون عن جلادين ضائعين. فانكفأ المقهورون ولم **يتعلّموا**.

وبفارغ من الصبر والعضّ على الجراح، انتظر التلاميذ الأطفال، وأهلهم ومعلّموهم، ومعهم كل فقراء صيدون، انتظروا

صبيحة سنة ١٩٩٤، فناموا ليلتهم في دفء حرارة الوعود والتطمينات، ليستيقظوا على أنغام آمال ظنّوها حقيقية. فحملوا على جباههم يافطات المستقبل، وفي أذهانهم صُوَرٌ لمدرسة ذات أبراج، تلفّها الجنائن وتضجّ بها النشاطات؛ واندفعوا متظاهرين باتجاه مدرستهم، فاصطدموا بحواجز أنابيب **«الآلتيكو»**، تختم كما الشمع الأحمر، مجاري أقفال المنازل والمحال التجارية ذات القربى، وكأن الله قد ختم على قلوب الجميع، فجعل على الأبصار غشاوة وفي الآذان الأصابع... وهرع الأطفال عائدين، فما عادوا يرون ولا يسمعون، **ولم يتعلموا**.

وانغلق كل شيء، إلاّ كتاباً لم يُخْتَتَمْ بعد... فبقي مفتوحاً لطالبه، **على صفحاته تسيل دمعة تلميذٍ فقير، وفي صُوَرِهِ صورٌ لأحزان معلّم، وألوانٌ لأسى مربي. وفي سطوره وكلماته وحروفه، قلمٌ ينزف دماً، فيسطر صفحات كانت فيما مضى بيضاً، ويخضبها بحنّاء تاريخ هذه الأيام التي لم تعد ترحم!**

أما الأطفال الذين تعفّرت أقدامهم الطرية في تراب الطريق إلى المدرسة، جيئة وذهاباً، فقد تشبّثوا بالتعلّم، وأصرّوا عليه، مصمّمين على النجاح. ولسوف يتعلمون، وسوف ينجحون.

وأما المعلّمون، ذوو المأساة وأصحاب العزاء، فظلمهم قد اعتادوا عليه. وهم إن رفعوا حناجرهم المبحوحة، فرحمةً بأطفال حيارى، لم يبلغوا أشدّهم بعد، ولا ذنب لهم غير عجزهم عن الالتحاق بالمدارس ذات الأقساط.

فيا من تسمعون نداءنا، ولا سلاح بأيدينا غير محبة العلم،

وعلم المحبة؛ لقد نضجت جلودنا فلا تبدلوها جلوداً أخرى.

ارحموا أطفال مدرسة «معروف سعد» الرسمية. دعوهم يتعلّموا.

ارحموا من لا ذنب لهم في شيء، ولا هم وقعوا في خطيئة.

ارحموا المدرسة الرسمية؛

ارحموا التربية والتعليم؛

ارحموا هذا الوطن المعذّب؛

كفانا عذاباً، ولا أظنكم إلاّ مستجيبين؟!.

المقالة الرابعة عشرة

المفاهيم التربوية في «الرائعة الغنائية»

المفاهيم التربوية

في «الرائعة الغنائية»(١)

في طريق عودتي من وزارة التربية إلى الجنوب، كنت مثقلاً بهمومي التربوية، أتخيّل وأتصوَّر، مقلباً في ذهني احتمالات الحلول كلها، إنما بِمَلَل وعناء. وحين أدرت مفتاح الراديو أبحث عن أغنيةٍ لطيفة أو لحنٍ مهذّىءٍ جميل، أزّ في أذنيّ صوت مُغَنٍّ ما عرفت اسمه، لكنه ينتمي حتماً إلى هذه الطائفة من المطربين، حديثي نعمة الطرب والمال، من روّاد القرن الواحد والعشرين، الذين ألتمس العذر منهم جميعاً، فلقد عجزت عن حفظ أسمائهم، ولم تستطع ذاكرتي أن تستوعب أكثر من أسماء محمد عبد الوهّاب، وعبد الحليم حافظ، وفريد الأطرش من المطربين السادة. كما لم تستوعب أكثر من إسمَيْ فيروز وأم كلثوم من المطربات السيّدات.

سمعته يصدح، وقد وردت بين كلمات أغنيته ألفاظ «**المريول**» و«**المدرسة**». فشددت أذنيّ إلى السماعة كي لا تفوتني فرصة الاستماع إلى **أغنية تربوية**، حتى تمكنت من الوقوف على لازمة قصيدته العصماء، التي ينغّم فيها:

---

(١) نشرتها السفير، يوم الثلاثاء في ٢٧/ ١٢/ ١٩٩٤م.

«زِتّي عَنَك هالمريول   وَيَلّلا تانطير شويّة
جِتّى إصيِّر مش معقول   لَ آخر هالصيفيّة»

ولكم دهشت لذلك الفن الرفيع! فهل يُعقل ألاّ نقدّر عظمة هذا التحريض الغنائي لبناتنا التلميذات، من خلال أسمى الفنون وأرقاها: الصوت والموسيقى، على رمي مراويلهن، وترك المدارس، تتيّماً «بمطيورين» من بعض شبان هذه الأيام؟

واستعرضت في ذهني سريعاً صور الأغاني كلها، والشعر الغزلي، وكل أنواع الرسوم والتصوير الإباحي، فوجدتها تتوجه إلى المرأة بشكل عام، دون تخصيص، ودون أن تجسر يوماً على التوجّه إلى فتياتنا البريئات المهذّبات من تلميذات المدارس.

وتابعت الاستماع بشغفٍ يشوبه القرف، وقد اختلطت عندي مشاعر الاستياء من الابتذال الفني، بدوافع الرغبة في استطلاع المزيد من العبقرية الغنائية. أو علّني قد أخطأت وأسأت الظنّ، فأسمع مجدداً غير ما قد سمعت، أو استشف تفسيراً مغايراً لما قد فسّرت. وإذا بمطربنا يصول ويجول، و«يقدّ المراجل» على ذوي عشيقته، مهدّداً متوعداً:

«لَـ أهلِك بُكرا رَحْ قول   إدّامُن في تَلاتْ خلول
يمّا قاتِل أو مقتول   يمّا بتعطوني هيّي»

فظهرت لي بوضوح صورة عنترة العبسي، في عصرنا الذرّي. وأسفت لمقدار هذه التفاهة، التي قد ينشأ عنها تحميس لشبّان مراهقين، على اقتحام منازل الناس تعقّباً لأوهام حب فارغة، أو مقارعة لأهلين معارضين، محافظةً وحرصاً على فلذات أكبادهم.

ويسترسل صاحبنا في التغنّي، متململاً من الموقف السلبي لأهل معشوقته، رافضاً قطعاً تلك المواقف، فيشد إزر نفسه، ويحسم أمره، ويقرّر ملعلعاً:

«إنّك ما بدّا تعطي وبيّك خبّرتو القصّة
قال لي ما بجوّز بنتي بعد ما خِلْصت درسا
الله يقطع عمر الدرس بدّي إياكِ إنتِ وبسّ»

إلى آخر المعزوفة.......

أما وقد أصبحت عبارة **«الله يقطع عمر الدرس»**، كما عرفت من أولادي، عبارة شائعة على لسان كل تلميذ، يردّدها عندما يريد أن يتندّر أمام ذويه ورفاقه؛ فإني أترك أمر تقويم هذه **«الرائعة الغنائية»** لمن هم أفهم مني في مجال الغناء، والشعر، والخلق والإبداع الفنّي. ولكنني، ومع قصوري في النقد الفنّي، لا أستطيع أن أتصوّر أو أتحمّل مثل هذا القحل، في هكذا تسجيلات صوتية مطروحة في الأسواق، ومتروكةٍ بين أيدي تلاميذنا، من الصبيان والبنات، تضلّل براءتهم وتفسد أذواقهم.

وكأننا لم تكفنا بَعْدُ البرامج التلفزيونية الخالية من أي توجيه ذي شأن، تربوي أو ثقافي. تلك البرامج والمعروضات، التي نستحي نحن الكبار أحياناً من متابعة بعضها، والنظر إلى الصور العارية والفاسدة فيها، تعرض على الشاشة الصغيرة في أي وقت من الأوقات، فكيف نستطيع أن نتحمّلها يحدّق فيها أطفالنا؟

كل ذلك في وقت تغيب عن شاشاتنا وعن كل وسائلنا الإعلامية، السمعية والبصرية، برامج تعليم الأطفال، وتثقيفهم،

وتوجيههم، والكشف عن مواهبهم، وتنمية إمكاناتهم؛ اللّهم، وحتى لا نكون كاذبين، إلاّ ما تطالعنا به برامج «**استظهِر واربح**» دون غاية أو هدف.



وتعود بنا الذاكرة إلى أيام الطفولة، في الخمسينات، يوم لم تكن تحكم أفعالنا غير العفّة، والأصالة، والهدوء، وبساطة العيش.

كنا متحلّقين يوماً، نحن أولاد الحي، حول مدفأةِ الحطب ندردش. وكان الراديو نادر الوجود في القرى. كانوا يقولون: «**أبو أمين باع بقرته واشترى بثمنها راديو**»، حباً بالعتابا وعشقاً للميجانا!

وسألَتْ أختي الكبيرة أحد الفتيان الصغار من أبناء الجيران:

ـ هل تستمع إلى الأغاني على الراديو؟

فأجاب بكبرياء:

ـ أنا لا أستمع إلاّ إلى نشرات الأخبار!

ولقد كان الاستماع إلى الأغاني، على الراديو، من قبل التلاميذ الصغار، يعتبر عيباً!

فإلى أي نوعٍ من أنواع الأغاني يرى ويستمع تلاميذنا اليوم؟!.

المقالة الخامسة عشرة

معلّـِـم الضيعـــة
ذكريـات وحنـين

معلّم الضيعة

ذكريات وحنين[1]

لا يوجد قرية واحدة في لبنان كلّه، إلاّ وتحفل ذاكرة أهلها بِصُوَرٍ زاهية، عن معلِّمين رُسُل، عبروا مسالك الأرياف اللبنانية، فمرّ طيفهم كالابتسامة على ثغر الصبح، أو كالعطر على تيجان الورود.

فمعلم الضيعة كان شاعرها، وأديبها، ولسان حالها. كان مربي أطفالها. لم يكن ليدرّسهم الحرف فقط، بل كان يلاحقهم بظلّه أينما حلّوا وكيفما اتجهوا. على مقاعد الدرس كانوا يتشرّبون منه العلم والمعرفة، وخارج جدران المدرسة، في البيت والشارع والحقل، كانوا يصقلون سلوكهم بتوجيهاته، ويهذّبون نفوسهم بسهر عيونه. لم يكن مسؤولاً عن تلقينهم علماً فقط، بل كان يرعى مشاعرهم، ويراعي أحاسيسهم، ويشذّب تصرفاتهم، ويكشف عن ميولهم، ويبني عقولهم، ويستخرج ويوجّه وينمّي المواهب.

معلم الضيعة كان كاتب رسائل الأحبة، وقارىء الأجوبة

(1) كُتبت بمناسبة عيد المعلم للعام ١٩٩٥، ونشرتها جريدة السفير يوم الجمعة في ١٠/ ٣/ ١٩٩٥م.

للأمهات. يعتصر الدمعة من عيونهن، ويقطف البسمة عن شفاه المتشوّقين.

معلم الضيعة كان قاضي قضاتها، يحكم في الخلافات، يصدّر الأحكام والحلول، يجري المصالحات، يؤلّف بين القلوب ويقرّب وجهات النظر.

معلم الضيعة كان المرشد والموجِّه، والمستشار الذي توزن الأمور بميزان رأيه، وتستخرج الأحكام من ثقافته وعلومه والمعارف.

معلم الضيعة كان الضيف الدائم الذي تُكرم وفادته، ويخفّ ظلّه، ويُعزّز مقامه. فكانت ضياعنا وقرانا ولا تزال، تختزن ذكريات الطيب عن معلمين منفردين مرّوا بها، فمهّدوا طرقاتها، وزرعوا بساتين أزهارها، وبنوا مستقبل الرجال والأجيال. وقد ظلّوا بعد تقاعدهم مراجع تُقْصَدُ. وبعد العمر الطويل، كتبت أسماؤهم بماء الذهب على جدران كعبة التربية والتعليم، وفاءً لهم، وتصديقاً لكل أفعالهم.



أما مدرسة الضيعة العتيقة، فكانت تتألّف من غرفة واحدة كبيرة، أو غرفتين في أحسن الأحوال، تضمّان كل صفوف المرحلة الابتدائية، التي يقوم بتدريسها معلِّم منفرد، أو معلِّمان اثنان، كانا المعلّمَيْن والمربيَيْن والساهرَيْن على حسن السلوك والأدب.

كان التلاميذ فقراء في كل شيء مادي، من محفظة القماش المعلّقة في الرقبة، إلى اللوح الحجري الأسود، إلى الدفاتر الثلاثة المخصّصة للعربي والفرنسي والحساب، وذلك للميسورين منّا فقط!

إلى المريول الأسود الذي يخبّىء تحته أسمال الثياب، إلى مدفأة الحطب التي يؤمن وقودها التلاميذ أنفسهم، قطعة من حطب الزيتون أو السنديان من كل تلميذ، وكل يوم، طيلة أيام الشتاء الباردة.

أما الملعب فكان «الحاكورة»، وأما المشارب فعلى عين الضيعة، إلى جانب قطعان المواشي العائدة من الحقول.

وبين الطبشور الأبيض وأصابع الكلس المجفَّف لم يكن عندنا فرق. اللّهمّ إلاّ الطبشور الملوّن، الذي كانت تجذبنا إلى اللوح الأسود ألوانه، فنبتهج لرؤيته، ونتنشَّق روائح غباره، ولكن دون أن يسد ذلك عندنا جوعاً؛ حتى تأتي الظهيرة، فيطلق سراحنا، ونتفرّق إلى بيوت القرية كالأغنام المشردة، يشدّنا الجوع إلى رائحة زيت الزيتون في البطاطا المقلية، وإلى حموضة اللبن المذوّب كمرطِّبٍ أيام الحر في حزيران.

وبعد الظهر كنا نعود في **دوامٍ ثانٍ**، وثلاثة أرباعنا قد كَبَتْ عيونهم، تعباً أو مللاً، وكادوا يستسلِمون للنوم المحرّم، لولا قضيب الرمّان الجاهز في كل حين، لسلخ جلد باطن الكفّ وظاهره، إضافة إلى «شلطة» الأذن المريعة.

* * *

وتشدّني الذكرى شداً إلى أيام الطفولة، إلى ليلة سوداء كالحة من ليالي كانون، وقد جنّ الليل فيها علينا وعسعس، فامتزجت ظلمتها القاتلة بعواصف المربعانيات، واختلطت بموجات الجليد المتدفقة من منافذ تلة «مليتا» وجبل الريحان الرفيع.

أذكر ذلك كما في شتاءات الطفولة كلها، يوم كنا نأوي إلى

القبو، أو «**الأرضية**»، نتحلّق حول مدفأة على الحطب، تأكل النار فيها أحطاب الزيتون والسنديان بنهم شديد. وكان أفراد العائلة يتسامرون مع «السهّيرة» في أحوال معاشهم، وفجأة يكبّرون الله ويصلّون على النبيّ، كلما لمع برقٌ أو قصف رعد.

وكنت أتربّع في زاوية صغيرة، إلى طاولة ترتفع عن الأرض شبراً، وتتسع لكتابٍ ودفترٍ وقلم. وعلى إحدى زواياها قنديل كازٍ عتيق، نزفت شريانه واحمرّت فتيلته، تلفحه بين الفينة والأخرى نسمة هواءٍ متسرّبة من باب السر، فيترجرج ضوؤه و«**يَكْلَبْ**». وما بين الرجرجة و«الكَلَبْ»، واستظهار قصيدة «**سواد العين يا وطني فداكا**»، كان يغلبني النعاس، فآوي إلى حضن أمي ولا أكون قد أنهيت فرض الحساب تماماً بعد!

وأغرق في نوم عميق، يلاحقني فيه كابوس وكيل المعلم، الذي أُوكل إليه أمر الرقابة علينا خارج المدرسة. فلا يراودني في الحلم إلاّ شبح معلمي، الذي كنت سألقاه غداً، وأنا مقصّر في واجباتي المدرسية، مستحقّ لعقابه، أو غضبه، أو على الأقل لومه وعتبه.

فقد كان المعلم محطّ هواجسنا كلها، **ارتبط به ضحكنا وبكاؤنا**، وارتسمت في عيوننا صورة عينيه، وفي مخيلاتنا صورة نبوغه، وفي آمالنا وطموحاتنا صورة القدوة، وصورة المثال الذي في شخصه. لقد كان القدوة والأنموذج، كما كان المَثَل الأعلى، والمرجع الأوّل والأخير.

ولمعلّمنا كل الصلاحيات، فقد فوّضه الأهل نزع رقابنا، عندما وثقوا به، بعد أن فوضوه عملية التربية والتعليم، وتحقيق النجاحات،

نكان عند حسن الظن. وكان من أجل تأمين مستقبلنا، ونجاحنا في الشهادة الرسمية الابتدائية «**السرتفيكا**»، يجمعنا في المدرسة ليلاً، على ضوء فانوس الكاز، فيلقّننا دروساً خاصة في الحساب والإملاء الفرنسي. **ونجحنا!**

لكن مقومات نجاح ذلك الوقت، هي غير مقوّمات نجاح هذه الأيام. والذي كان يرضينا ونقنع به، لم يعد ليرضي أولادنا أو يقنعهم.

ولئن كانت مدرستنا العتيقة موازيةً في الضيعة لبيوت «**الكلّين**»، والسقف الترابي، والمحدلة الحجرية، و«**الماعوص**» الخشبي، وكواير القمح، وخابية الزيت، وزنبيل التين اليابس و«**الدحروب**»، ومخدع فراش الصوف، وباب السر، والمصطبة الترابية، والزاروب الضيّق، والمعصرة يدوّرها الحصان، ومزراب العين، والنورج الخشبي المرصّع، والمحراث... ... فإن مدرسة اليوم، لم يعد يرضيها، إلاّ أن توازي الشقة الفخمة، والڤيلّلا العصرية، وطريق الأوتوستراد، والسيارة، والطيّارة، وشاشات السينما والتلفزيون، وأضواء المسارح والملاعب، وكل حفلات الترفيه، والأوتوكار يقف على كعب مطلع الدرج...!



لقد تغيّرت أشكال الحياة وأنماطها، وتبدّلت مع الأيام ألوانها. وبقينا دائماً، رغم التغيّر والتبدّل، نتطلّع إلى الأصالة فنمجّدها، ونبحث عن القِيَم لنسمو بها. والأشياء بحدّ ذاتها لا قيمة محدّدة لها، فالإنسان هو الذي يعطيها قيمها، عندما يُسقِط عليها أحاسيسه

والمشاعر، وعندما يزنها بميزان عقله والعواطف، فيفاضِل بينها ويمايِز.

إنّ من شأن المتيّمين بالسلطة، أو المال، أو الأحبّة، أن يُلبسوا معشوقاتهم لباس عواطفهم، ويتوّجوهن بأحاسيسهم ومشاعرهم، فلا يرون فيهن إلاّ النبل، والعظمة، والحقّ والجمال!

وأنت أيّها المعلّم:

يا من تمثّل بك أطفالنا، وتشبّه بك أولادنا، فعشقوا فيك قدوتهم، وأحبّوا مثالهم وصور مستقبلهم. وكنت لهم هوىً، تبلورت فيه آمالهم، فما شكوا حزناً إلاّ إليك، ولا ودّوا أن يشاركهم فرحتهم سواك.

أيها المعلم:

كن دائماً بحجم هذا العشق، وعلى قدر هذا الهوى، لتلتقي فيك أحاسيس عواطف الأطفال، بتقاويم عقول الرجال، وحرارة الانتماء إلى الوطن.

لِتبقَ رسولاً،

وَليُعِد عليك الله أعيادك،

صحةً وسلامةً وإنصافاً جميلاً.

المقالة السادسة عشرة

هـلال واحد لا هـلالان
بالعلم نحـدّده
باليوم والساعة والدقيقة

هلال واحد لا هلالان

بالعلم نحدّده باليوم والساعة والدقيقة(١)

وبقيت ذكرى مؤذِّن الضيعة راسخةً في الأذهان لا تمحوها السنون، ذلك «السيّد» الجليل، المعمّم بالعمامة الخضراء، الذي كان يتسلّق سلّم خشب الزنزلخت، ليصعد إلى سطح الجامع العتيق، الذي التهمته قبّة كبيرة عالية، ولم تُبقِ منه حولها سوى دائرةٍ ضيقة كالسوار، كان المؤذن يجوبها من كل الجهات، جيئةً وذهاباً، ويصيح بأعلى صوته: «الله أكبر الله أكبر» معلناً غياب الشمس التي غطست كلياً في الأفق الغربي، فيفطر الصائمون. وعند بزوغ الفجر، كان يصيح ثانية بالتكبير، معلناً بيان الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فيمسك الناس عن الطعام والشراب.

لم تكن في تكرار ذلك المشهد على مدى شهر رمضان كلّه أية مشكلة، لكن المشكلة كانت في رصد الهلال، في أول الشهر وآخره. فقد كان «الحاج حسن» وحده من أبناء الضيعة كلهم، سبّاقاً إلى معرفة مكان ظهوره ورصده، على شكل بريقٍ صغيرٍ جداً، مثل نتفةٍ من خيطٍ

---

(١) نشرتها جريدة السفير يوم السبت في ١٧/ ٢/ ١٩٩٦م.

مُنْحَنٍ مضيء. كان يترقّبه في نهاية شهر شعبان من كل عام، معلناً برؤيته بدء الصيام. ويعود إلى ترقّبه ثانية في نهاية شهر رمضان، من على مصطبة الجامع المشرفة تماماً على الغرب، للتثبّت من يوم عيد الفطر السعيد، عملاً بالحديث الشريف: **«صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»**.

وفي أيام الشتاء المكفهرّة، حيث تغطي الغيوم كل شيء، وتخفي وراءها الكواكب كلها، كان الصائمون يعدون ثلاثين يوماً ويفطرون. أما أيام الصحو والجلاء، فكانوا يتبارون في ترقّب هلال شهر شوّال ورصده. وفي لبنان الجنوبي، كان أهالي بلدة **دير قانون النهر** سبّاقين إلى رؤيته، ربما لموقع بلدتهم الفخم[١].

وينهض الأطفال صبيحة يوم العيد، بثيابٍ جديدة وأحذية جديدة، في أيديهم كعك العيد، وعلى البيادر تُنصب الأراجيح، و**«كل عام وأنتم بخير»** و**«تنعاد عليكم»** عبارات كانت تطلع من القلب إلى القلب.

لكن الشوائب من حين إلى آخر كانت كالأقدار. وإذا عجز المترقّبون عن رؤية هلالهم، فهيهات أن يبلغهم نبأ ظهوره في مكان آخر أو بلد آخر بسلام. فالتلفزيون لم يكن معروفاً بعد، والراديوات قليلة أو نادرة. وإلى أن يأتي رجل ثقة بفتوى العيد، يكون المنتظرون قد صاموا ثلث يوم عيدهم، أو نصفه، وقد ذهبت مع الانتظار بهجة العيد وفرحته. هذا إذا لم يتقرر العيد عيدين اثنين: عيداً لقسمٍ من

(١) يناقسهم في ذلك أهالي بلدة الصرفند.

المسلمين رأوا هلالهم، وعيداً لقسمٍ آخر لم يروه إلاّ لليوم الثاني. فيتأذى الصغار من عيدٍ متردّدٍ فاتر، ويتململ الكبار من عدم وحدة الكلمة.

ربما كان ذلك أمراً شبه طبيعي، أو نصف مقبول، في وقت قصُرت فيه علوم الفلك والجغرافيا والحساب، وتقنياتها. لكن الأمر ما عاد مقبولاً، لا بل أصبح ممجوجاً، في زمنٍ أصبح فيه توليد القمر أسهل من شربة الماء.

فلقد أثبتت علوم جغرافية الفلك، أن غياب الشمس والقمر أو طلوعهما، تختلف مواقيتهما من بلدٍ إلى آخر يقعان على خطوط طولٍ مختلفة. فكلما اتجهنا شرقاً، كان الغروب أسبق. وكلما اتجهنا غرباً، كان الغروب أبعد. وينطبق الشيء ذاته على ظهور الهلال واختفائه أول الشهر. فقد يُرى ذلك الهلال في سوريا ولبنان، ولا يُرى في إيران وباكستان. وقد يُرى في تونس أو مراكش، ولا يُرى في بلاد الخليج العربي[1]. وفوق ذلك كله، فإن علماء الفلك قادرون على توليده بالساعة والدقيقة. فلن يصعب على الفلكي الذي يتنبأ بخسوف القمر، محدّداً يومه وساعته قبل أشهرٍ أو سنوات، أن يحدّد بداية الشهر القمري قبل أيامٍ أو ساعات.

يُحكى عن الفيلسوف والعالِم الفلكي **نصير الدين الطوسي**، أنه ومنذ أكثر من سبعمئة عام قبل زماننا هذا، الذي يؤلهون فيه العلم،

(١) إن التغير الدائم في نسبة ميلان محور الأرض، وتأثيره على حركة الشمس الظاهرية، يؤدي إلى اختلافاتٍ في أوقات ومواعيد ظهور الهلال، تبعاً للأماكن المختلفة. كما يؤدي ذلك إلى إرباك المترقبين لظهوره، في تعقبهم له وتحديدهم لمكانه.

كان قد تنبأ بخسوف القمر قبل حدوثه. وقد بلغ ذلك مسامع هولاكو المغولي، فأرسل في طلبه وأمر بقتله إذا ظهر كذبه. ثم أودعه السجن بانتظار حصوله. ولسوء طالع النصير، فقد غطّ هولاكو ليلة الخسوف في نومٍ عميق، وليس هناك من يجرؤ على إيقاظه. وأتى الناس إلى النصير في سجنه مذهولين خائفين، فأشار الطوسي عليهم أن قمرهم قد ابتلعه الحوت، وأنه لن يلفظه ويعيده إليهم إلاّ إذا قرعوا الطبول وضربوا بالعصي على أواني النحاس. وقد فعلوا، فأيقظت طبولهم ونحاسياتهم حاكمهم، فرأى هو بعينه، ونجا النصير بحنكته.

وظلت فئات شعبية في لبنان حتى الأمس القريب، عند حدوث الخسوف، تقرع الأواني المعدنية، وتجوب الشوارع والزقاق مردِّدة:

«اترك قمرنا يا حوت أحسن ما نفقع ونموت»

كما يقوم العراقيون بالفعل نفسه وهم يرجزون:

«يا حوتِه يا لمنحوتِه هِذي كُمرنا العالي
واجّان ما تهذّينه لـ ضُرُبِج بسجّينه»[1]

لقد خلق الله لنا البصر، وجعل لنا البصيرة، يتساعدان. كما مكّننا من رؤية العين، وسهّل علينا رؤيا القلب والعقل، يتكاملان. فما بنا لا زلنا مقصّرين عن استعمال إمكاناتنا؟ اللهم إلاّ إذا كان في الأمر سياسة، فالله يسترنا، **من أن يصبح الهلال، بدل الهلالين، ثلاثة وأكثر...**

---

(١) يخاطبون الحوت، أن اترك قمرنا العالي، وإذا لم تتركه فسوف نضربك بالسكين.

المقالة السابعة عشرة

رصيد الكرامة

رصيد الكرامة[1]

عبد الحليم، معلّمٌ في الشريط الحدودي المحتل، ضيّق عليه العدو الخناق، فطار بعائلته على أجنحة السرعة، وحطّ رحاله على شواطىء بحر صيدون.

ألحقته المنطقة التربوية بإحدى مدارس القضاء الفقيرة بعدد المعلمين، فأذعن غير راضٍ، ولا سرّه بُعد المسافة.

أقسمنا له بالمدرسة الرسمية، وبعهدتنا لأبناء الفقراء، وسألناه التضحية في سبيلهم فهم يستحقّون؛ فآلمه السؤال أكثر، وهو الذي لم يتنكّر لرسالة التعليم يوماً، إنما تخنقه الضائقة المعيشية، وفقر الحال، وتثقل كاهله أجور النقل والانتقال.

ورفض عبد الحليم تطييب خاطره، ولم يستجب لمحاولات التخفيف من همّه وغمّه، وأصرّ على الاحتكام إلى الآلة الحاسبة، فأخرجها من جيبه وراح يعدّ لنا ويحتسب.

---

(١) نشرتها جريدة اللواء يوم الأربعاء بتاريخ ٢٠/٣/١٩٩٦ بعنوان: «أنموذج معلم» وذلك بمناسبة عيد المعلم للعام ١٩٩٦.

قال: مضى على قيامي بواجب الرسالة عشرون عاماً، كبُرَتْ خلالها عائلتي ونَمَت، فأصبحنا ستةً، وراتبي لا يزيد عن الست مئة ألف. أأبدأ معكم بحساب الغذاء، أم بالكساء، أم بالدواء؟

ولما رفضنا الدخول في متاهات الحساب المطّاط، الذي يختلف في الغذاء ما بين الخروف المحشي وحبة الزيتون، وفي الكساء ما بين حرير القزّ وقماش «سوق الوقية»، وفي الدواء ما بين الفحوصات الوقائية المخملية وقرص الأسبرين؛ هزّ رأسه وتبسّم، واكتفى بفتح ملف اللوازم من ضروريات الحياة.

قال:

للخبز في اليوم ربطة، وللتبغ علبة، وللحلاقة شفرة، ولاستطلاع الأخبار والعلوم والمعارف ـ فأنا معلم ـ جريدة، و«خرجيّة» للولد الواحد ألف ليرة.

وفي الأسبوع للغاز قارورة، وللدواء أنبوبة، وللدفاتر والأقلام ـ فالأولاد يتعلّمون ـ رزمة.

وللفواتير الشهرية إيجارُ البيت، وإيصالات الماء والكهرباء، وفريضة الحراسة والكناسة، وقسط الأوتوكار وأجور النقل والانتقال.

وللمدفوعات السنوية موسمُ الكتبِ، والقرطاسيةِ، والمراويلِ، ورسوم التسجيل؛ وتكاليفُ الأعياد الدينية والوطنية، والقيامُ بواجب الأفراح والأتراح.

ثم جمعَ وطرحَ وضربَ واختزل، ففاق المجموع الستمئة ألف، والتهمت ضروريات الحياة المعاش كلّه، وهو لم يصل بعد إلى احتساب الطعام بأصنافه، والغذاء بأنواعه، ولا ذكرَ الكساء ولا الحذاء

بصيفه وشتائه. وبقيت الطبابة بفرق تقديمات التعاونية، كما بقيت أدوات الغسل، ومساحيق التنظيف والتطهير. ولم يُحسب الحسابُ لنزهة تجري ولو سيراً على الأقدام، ولا لزيارة واجبةٍ شرعاً للأهل والأقارب، أو لفنجان قهوة لضيفٍ يفاجئك بطرق بابك، أو لأي شيء آخر يبيِّض الوجه ويفتح العينين!

أفنمدّ أيدينا لقبول الصدقات؟

أم نرهن أنفسنا للأعمال الإضافية التي تخرق القوانين، بعملٍ مأجورٍ يحط من كرامة الوظيفة، أو يكون على حساب رسالة التربية والتعليم؟.

* * *

وظلت المشكلة قائمة تستدعي حلولاً؛

وظل عبد الحليم عبداً لآلته الحاسبة، يجلس في بيته فيداعبها بأنامله و«**يطقطق**»، ويمشي في الشارع فيخرجها من جيبه ينقرها بأظافره و«يطقطق»، ويدخل غرفة المعلمين في مدرسته، فيجمع زملاءه، يحسب لهم، يعدّ و«يطقطق»!

وظلت صور الأرقام والحسابات تتحرّك على الشاشة المجهرية، تظهر وتختفي، تشعّ وتنطفي، والرصيد المادي يتآكل ويضمحل يوماً بعد يوم. **أما رصيد الكرامة فقد بقي، وهو باقٍ إلى الأبد يكبر ويتعاظم!**.

المقالة الثامنة عشرة

الـــزواحــف

الــزواحــف(١)

تشهد مدننا وبلداتنا، وأحياناً بعض قرانا، يومياً تقريباً، احتفالات ومهرجانات من كل الأنواع والأشكال: تكريمية، أو تأبينية، أو تربوية، أو ثقافية، أو رياضية، أو سياسية، أو وطنية، أو نشاطاتية مزركشة؛ وهي تفخّم جداً هذه الأيام، فلا تقام إلاّ برعاية نائب أو وزير، ويرعى الكبير أو المميّز منها عادة أحد الرؤساء الثلاثة.

ويلفت نظرك بسهولة في هذه المناسبات، زحف المدعوّين وتزاحمهم للجلوس في الصفوف الأمامية والواجهات. فالصف الأول من المقاعد مخصّص بروتوكولياً للوزراء والنوّاب، والصفّ الثاني للمديرين العامّين أو ما يعادلهم. والصف الثالث لكبار الموظفين، والمواطنين من أصحاب المراكز والنفوذ. أما الصفّ المواجه، فللوجاهات السياسية والاجتماعية الكبرى. ويخترق هذه الصفوف جميعاً، وبتفاوتٍ نسبي، ذوو الأموال، والمراجع الروحية وغير الروحية، المتميّزة بالألبسة الخاصة والعمائم.

(١) نشرتها جريدة السفير يوم الأربعاء في ٣/ ٤/ ١٩٩٦م.

لكن ذلك التصنيف البروتوكولي لا يُضبط ولا يُلتزم به دائما. فاللبنانيون الذين «دوّخوا» العالم، يدوّخون في الوقت ذاته بعضهم بعضاً، كما يدوّخون أنفسهم. فلقد تذمّر أستاذ جامعي عتيق، عميد لإحدى الكليات، شاكياً متأففاً مما أساء به إليه مستقبلوه في أحد الاحتفالات، حين أجلسوه في الصف الثالث (وربما الرابع). وقد نظر أمامه، فرأى (مع احترامه للجميع) أناساً أقلّ منه علماً، أو ثقافة، أو موقعاً اجتماعياً، أو منصباً، أو رتبة، أو درجة، أو حسن سلوك.

كما لاحظ من بين هؤلاء المحتلين للواجهات والصفوف الأمامية، من الذين مُيّزوا أو ميزوا أنفسهم عنه، وجاهة وتمظهراً، من كان ولفترة وجيزة جداً، أقلّ منه في كل شيء مما سبقت الإشارة إليه من المواقع.

وقد عزّ ذلك على صاحبنا وآلمه، فوشوش في أذن صديقه الذي إلى جانبه سائلاً: لماذا برأيك لا يصل الكثيرون، من الصادقين والمستقيمين، وأصحاب الكفاءات والمؤهلات، إلى مراكزهم الحقيقية التي يستأهلون؟ ولماذا لا يرتقون إلى مواقعهم الطبيعية التي يستحقّون؟ فهمس جاره في وجهه مجيباً: **لأنهم لا يزحفون!**

فتنبّه الرجل حينئذٍ، وتذكّر على الفور، أن الزواحف كلها، أمثال الحرابي والسحالي، وعلى رأسها الأفاعي، لا تتبع في سيرها الخط المستقيم. بل هي تتلوى، وتتلوّن، وتتعرّج يمنة ويساراً، فتبطىء في سيرها حيناً، وتسرع حيناً آخر، أو هي تربض، أو تهب وتقفز، أو تختفي فجأة ثم تظهر، إلى أن تبلغ هدفها وتصل إليه، متبعة كل الطرق المتعرجة، أو المعوجّة، أو المتكسرة، أو الملتوية.

وقد تراءت له العبرة، فترحّم بأسفٍ شديد على **إقليدس**، الرياضي اليوناني الشهير، الذي ما زلنا نتعلّم ونعلّم قواعد هندسته لأولادنا منذ القرن الثالث قبل المسيح، حين أكّد وأصرّ، منسجماً مع ثوابته المنطلقة من السطح الهندسي المستوي، غير المقعّر ولا المنتفخ، على أن أقرب وأقصر المسافات بين نقطتين هي **الخط المستقيم**.

واستنتاجاً، فإن مجموع زوايا المثلث يساوي زاويتين قائمتين، ومن نقطةٍ ما، **لا يهبط إلاّ خطٌ** عموديٌ واحد على الخط المستقيم الذي يقابلها.

لكن إصرار إقليدس وتأكيده، قد أصبحا اليوم في غير محلهما البتة، وذلك مع ظهور النظريات الهندسية النسبية والجديدة، لكلٍ من العالمين في الرياضيات، «**ريمان**» و«**لوباتشفسكي**»، اللذين تخليا عن السطوح المستوية والمنقشعة، وانطلقا من السطوح المنتفخة أو المنفوخة، من الداخل أو من الخارج، فأمكن معهما لزوايا المثلث أن تنقص أو تزيد عن قائمتين، وأمكن أن تهبط من النقطة الواحدة مئات الخطوط العمودية وأكثر. كما أن أقصر المسافات وأقرب الطرق للوصول والبلوغ، يمكن أن تكون الخطوط المنحنية، أو الملتوية، أو كليهما معاً.

❊ ❊ ❊

ألا إن سطح الكرة الأرضية واسع رحب، وهو قادر على استيعاب السطوح كلها، وعلى اختصار المسافات وتقريب الطُرق. **فأما الثوابت فقد تحركت، وأما المقاييس والمعايير فقد تبدّلت وتغيّرت، وأما المتقدم والمرتفع في مقامه فبنعمةِ ربّه يُحدّث!**.

المقالة التاسعة عشرة

ليلةٌ في البيت الحرام وليلتان بين عرفات، ومِنىً والمزدلفة

ليلة في البيت الحـرام(*)
وليلتان بين عرفات، ومِنىً والمزدلفة

لبسنا ثوب الإحرام[1]، الذي يصرّ المعرِّفون[2] على تشبيهه بالكفن[3]، وانطلقنا في حافلةٍ مكشوفةٍ بلا سقف، منعاً للتظلّل، باتجاه المدينة المقدّسة، أو البلد الحرام، مكة المكرّمة، أو بكّة كما ورد اسمها في القرآن الكريم[4].

دخلنا بلد الأنبياء، آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل... ومحمد؛ وفي أذهاننا صورة عتيقة لوادٍ غير ذي زرع؛ وإذا بالشواهق من مباني القرن العشرين، قد انتصبت، وتطاولت على شعاب مكة نفسها، فضلاً عن تطاولها على البيت الحرام. كانت الشمس تميل إلى المغيب، عندما شقّينا طريقنا بين الجموع الغفيرة، في الشوارع والأسواق

(*) مشاهداتٌ من وحي رحلتنا لأداء فريضة الحج، عام ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(١) ثوب الإحرام عبارة عن منشفتين، بيضاوتي اللون، واحدة تستر العورة من الصرة إلى الركبتين، وتدعى الإزار، وأخرى تستر الكتفين والظهر، وتدعى الرداء. المنشفتان تُلفان لفاً وتُربطان ربطاً ولا يحلّ المخيط.

(٢) المعرِّف هو قائد الحملة أو المجموعة من الحجّاج، وهو دليلهم ومرشدهم للقيام بمناسكهم.

(٣) الحاجّ يسعى إلى ربه بثوب الإحرام، كالمتوفى الذي يلاقي ربه بكفنه الأبيض.

(٤) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾. سورة آل عمران، الآية: ٩٦م.

المحيطة بالمسجد الحرام. وما إن صاح المؤذّن «الله أكبر» رافعاً أذان المغرب، حتى أسدل التجار ستائرهم على بضاعتهم، وَذَراً للبيع والشراء، وسعياً إلى ذكر الله. وغصّت الأرصفة والشوارع والساحات بالمصلّين الركّع السّجود، فانسدّت المنافذ كلها! حتى إذا ما قُضيت الصلاة، استأنفنا بصعوبةٍ بالغةٍ عملية العبور إلى الكعبة الشريفة.

أبواب الدخول كانت كثيرة؛ منها باب العمرة، وباب الصفا، وباب الملك فهد، إلى غيرها من الأبواب... اصطف الداخلون صفّاً واحداً فقط، ومع ذلك فقد تعذّر عليهم الدخول السريع. فالخارجون من الأبوابِ كلها عقب الصلاة لا تُعدّ صفوفهم، حتى خُيّل إليّ أني داخلٌ المسجد الحرام لأجده وقد فرغ من مصلّيه، أو أنّي داخلٌ حرم الكعبة المشرّفة، لأجد فِناءها رحباً وقد اتسع بسهولةٍ للأعداد القليلة ظاهرياً من الداخلين إليه، الذين أمّوا البيت المحرّم للطواف حوله.

وبقينا ندخل وندخل، وبقيت خطواتنا بسبب الازدحام الشديد تتثاقل وتتثاقل، عبر مساجد رُفعت قببها، وطالت مآذنها السبع[1] عبّ السماء، إلى أن شعّ نور الله في عيوننا، فانقشعت لنا الكعبة المشرّفة، مجلّلة بسوادٍ يبعث في النفس الرهبة والوجل، والطائفون حولها لا عداد لهم، كأن أحداً لم يخرج ممّن رأيناهم خارجين، أو كأن أبواب الدخول قد أضحت ينابيع بشرية لا ينضب مدادها، حتى خُيّل إليّ أن فِناء الكعبة قد حلّت فيه الملائكة بثياب الإحرام، وأن الأرض تنشق فتُخرج أفواجاً تتلوها أفواج من الطائفين حول البيت، الشاخصين إليه،

---

(١) زيد عليها مؤخراً مئذنتان، غير ظاهرتين تماماً للمتواجدين داخل الحرم. فأصبحت تسع مآذن.

الهاتفين المردّدين بالورع كله: **لبّيك اللهم لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إن الحمد، والنعمة، لك والملك. لا شريك لك لبّيك!!**

ما أشبه ذلك المشهد بالصورة المتخيّلة التي في أذهاننا عن **يوم القيامة!** لكأن الساعة قد اقتربت، وهبّ الناس لملاقاة ربّهم عبر بيته الحرام. ها **إبراهيم قد أذّن في الناس بالحجِّ فأتوه من كل فجٍّ عميق**[1]...

عقدنا نيّة الطواف حول البيت **سبعة أشواطٍ** وولجنا مجال حلقة الطائفين. كان بيننا نساءٌ ضعيفات يعجزن عن الولوج في الدوامة، فضرب الرجال حولهن طوقاً منيعاً مخافة أن يدهسهنّ المدّ البشري. **بحر من البشر تتلاطم أمواجه**، وازدحام مميت ليس له مثيل. هذا حاجٌ عُصِر جسده عصراً بين موجتين، وذاك طُعن في خاصرته بضربة كوعٍ حادة، وثالث ضاق نَفَسُه فكاد يختنق. حجيجٌ يرون أنفسهم وهدفهم الذي يقصدون، ولا يرون الآخرين. البعض لا يتورع عن إيذاء غيره بطعنة كوعٍ، أو «دفشةٍ»، أو اعتراض طريق. إحدى النساء القويات، كانت تصلّي على محمدٍ وآل محمد، وتطعن بكوعَيْها يميناً ويساراً لتفتح لنفسها منفذاً إلى جدار الكعبة. كانت تستغل عبارة فيها اللطف كله، للقيام بعملٍ فيه الرعونة كلّها!

مجموعة من الذين أنهوا طوافهم، استسهلوا العبور عكس المسيرة، وراحوا يفتحون طريقاً لرجل دينٍ **إلى الحجر الأسود**[2]

(١) ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ سورة الحجّ، الآية: ٢٧م.

(٢) موجود في ركن الكعبة، لجهة الجنوب الشرقي، منه يبدأ الطواف وعنده ينتهي.

ليقبّله، غير آبهين بمضايقاتهم للطائفين. إثنان تنافسا في الوصول إلى باب الكعبة، فتدافعا وتضاربا. حاجٌ رشيق خفيف الهمّة انسدّت طريقه إلى الحجر الأسود، فزحف على أكتاف الطائفين ورؤوسهم حتى بلغه، فتمسّك به، أدخل رأسه في جوفه، وراح يقبّله بشغف المستميت، ولمدة عشرات الثواني، ناسياً أن لغيره فيه الحق، وأن كل ثانية يعدّها عليه المتزاحمون، توازي ساعة من الانتظار والتحمّل والتصبّر.

أحد المصلّين أصرّ على الصلاة تماماً خلف **مقام إبراهيم**، فطوّقته مجموعة من رفاقه تحميه من الدهس، تعترض طريق الطائفين، تعيق مسيرتهم وتسبب لهم الأذى. **تلزمك قوة عشرة رجالٍ** للثبات في دائرة الطواف، حامياً لنفسك ولمن تساعده من الضعفاء. لقد أحسسنا بذلك الشعور فعلاً!

الجميع في البيت الحرام؛ لكن ما يؤسف له حقاً، هو عدم التزام الكثرة الكاثرة من الحجيج **بآداب الطواف** وحرمته، وما أقل الذين يلتزمون بها. والأمر غير قابلٍ للتنظيم، لشدة زحام المارّة بين الكعبة ومقام إبراهيم. أما الذين يطوفون خارج هذا المقام، وفي دوائر أوسع وأبعد عن البيت، فلا تواجههم تلك المشاق.

لم يكن اعتداء الطائفين على بعضهم البعض **اعتداءً مقصوداً**؛ إنما كان **«التدفيش»** و**«النعوَرَة»** و**«الدعس على الأقدام»**، واغتصاب الحق في المرور، وإعاقة المسيرة المقدّسة، وقطع الأنفاس، والنظرات الغاضبة أو العاتبة أو اللائمة أو المستنكرة، وصيحات الانتقاد، وأحياناً التوبيخ؛ كلها من **ردّات الفعل العفوية والقسرية على المعاناة من الازدحام**. ولولا الالتزام بنهيه تعالى: ﴿... وَلَا جِدَالَ فِي

ٱلْحَجِّ ﴾ لقتل الناس بعضهم بعضاً. فكانت آية «لا جدال في الحج» سبباً في حقن دماء الحجيج[1].

وتبقى الحاجة ماسّة إلى الالتزام بآداب الطواف، وهي تكون، إما جزءاً من الآداب العامة التي يتحلّى بها الإنسان المستنير، وإما نتيجة تربيةٍ وتنشئةٍ دينية عامة، أو توجيهٍ خاصٍ مرتبطٍ بفريضةِ الحجّ وأداء مناسكه[2].

وسط هذا الضجيج الصاخب، يصعب عليك فعلاً أن تقيم اتصالاً روحانياً خالصاً مع الباري تعالى؛ اللّهم إلاّ ما تجهش به من البكاء، وأنت ترفع يديك باتجاه الكعبة الشريفة، أمام بابها، أو ركن حجرها الأسود، تدعو ربك، وأنت على يقينٍ بأن دعاءك مستجاب. لذلك خرجتُ من رحى الطواف بعد إتمامه، فصلّيتُ اثنتين، وانتحيت زاوية من زوايا الفِناء، أمام باب العمرة.

تجلس على الأرض الطاهرة، المغطاة بالرخام الأبيض المبرّد، يحيط بك الحجيج من كل جانب، يصلّون، أو يتأمّلون، أو يخلدون إلى الراحة، ويسترسلون. تنظر إلى الكعبة الشريفة فينجذب بصرك

(١) يفرض الله علينا في الحجّ الامتثال لأرفع أنواع الالتزام الديني والخلقي، والترفّع عن الشهوات. قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ (جماع) وَلَا فُسُوقَ (معصية) وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾. سورة البقرة، الآية: ١٩٧م.

(٢) إن الحائزين على هذا الأدب الرفيع من آداب الطواف، وهم قلّة، لا يؤذون غيرهم، ولو طافوا أياماً وأسابيع. وإذا صدرت عنهم أذيّة فعن غير قصد، ويبدون عنها أسفهم الشديد. أما الذين لا تربطهم بهذه الآداب رابطة، وهم كُثر، فيسيئون إلى أنفسهم أولاً، ثم إلى إخواتهم وإلى الإسلام والحرم الشريف نفسه. في هؤلاء، ربما، قال الإمام زين العابدين: «ما حججت إلاّ أنا، وناقتي، ورجل من البصرة».

إليها انجذاباً. تتأمل فلا تشبع، وتراقب فلا تملّ، والجموع من أمامك تمرّ بلا كلل، يدعون ربّهم، يستغفرونه، أو يتأملون. إنهم يدورون حول البيت، لجهته قلوبهم، ففي القلوب يسكن الإيمان. وفي دورانهم اختصار لحركة الكون الدائرية، وإشارة إلى الحياة، والاستمرارية، والديمومة. ولا سكون، لأن السكون لا يعني سوى الموت، والنهاية.

بعيداً عن المتاعب الجسدية الناشئة عن عمليّتي الطواف والسعي[1]، تنشأ عندك حالة روحانية رائعة، تشعر معها كأنك تجرّعت دواءً أزال عنك تعبك الجسماني كله، فيخفّ جسدك ويطيب. وتشعر أيضاً، كأنك تجرّعت دواء للنفس، غسل همومها ومتاعبها، وصفّاها من متعلقاتها الدنيوية. راحة جسدية وصفاء نفسي، فترفض أن تتخلى عن هذه الحالة النادرة، وهذا الموقع العظيم، وتودّ لو بقيتَ فيه العمر كلّه.

وتُعيد التأمل في البيت الحرام، ترتاح لسواده، كأن وظيفته استخراج السواد الذي فيك، وامتصاصه، واستيعابه لتبقى أنت ناصعاً. تنظر إلى حِجْرِ إسماعيل، والمنارات الصغيرة التي تنيره، وإلى الملتجئين إليه، الواقفين تحت ميزاب الرحمة، إلتجاءً إلى رحمة ربهم ومغفرته. كما تنظر إلى جدار الكعبة الغربي، إلى الحائط المستجار، وإلى الأكفّ التي تصافحه، تلامسه وتمسح بواطنها به مسحاً. تشخص إليه ببصرك، فلا تعود تحتمل، إلاّ أن تهبّ وتقصده. تخترق الجموع

(١) السعي سبعة أشواط أيضاً، قطعاً للمسافة القائمة بين صخرتي الصفا والمروة (٤٠٠م)، جيئةً وذهاباً، تبدأ بالصفا، وتنتهي بالمروة.

المتحركة، تصل إليه، تبسط عليه كلتا كفيك، تقبّله، تمرّغ به وجهك، تعترف بذنوبك، تستجير برب العالمين فيغفرها لك، وتعطي العهد بالإقلاع عنها أبداً. **تدعو الله ألاّ يجعلك إلاّ على الصراط المستقيم**. تكتفي.. تنتشي.. تحاول بعدها العودة إلى منزلك فتجد نفسك **مشدوداً إلى البقاء شداً**. وإذا غادرت، تشعر بإلحاح الحاجة إلى العودة، **وبأن قلبك يهوي إليها**؛ هذا نداء إبراهيم في أذنيك: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[1].

وتروح تبحث عن سرّ هذا **الإنجذاب، والهوى**، فيحضرك حديث شريف للنبي الكريم: **«لم أجد مكاناً أقرب من الكعبة إلى السماء»**. ويحدّثونك عن **البيت المعمور**، الذي في السماء، تطوف حوله الملائكة، والكعبة تحته يطوف حولها المؤمنون. أما رائد الفضاء **«نيل آمسترونغ»**، فقد نُقل عنه أنه سمع من القمر صوت الأذان يرتفع من المسجد الحرام، ولم يكن ليعرف ذلك الصوت، إلى أن زار مصر، وسمع الصوت نفسه، فعرفه، وأسلم[2].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧ك.

(٢) أحد المستنيرين من الأخوة المسيحيين، ممن نُجلّ ثقافتهم ونحترم، يرى أن الدعوة إلى الحج ليست وقفاً على المسلمين وحدهم. وهو يستشهد على ذلك بالآيتين الكريمتين: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٧﴾ (سورة آل عمران، الآية: ٩٦ ـ ٩٧م). فالدعوة بنظره هنا عامة، للناس كافة وللعالمين! لكن التعميم هنا غير جائز، لأن التخصيص واردٌ ومشارٌ إليه، في الآية الثانية كما في آياتٍ أخر (في سورة التوبة مثلا)، تماماً كالقانون الخاص، الذي يقيّد بخصوصيته القانون العام.

إضافة إلى ذلك، يتبيّن لك عند **التحليل العقلي**، أنك إذا قصدت بلداً، أو مكاناً آخر غير المكان الذي أنت فيه، **فإنك** تصل أول ما تصل، إلى أقرب نقطةٍ في المكان المقصود، ثم تنتشر منها إلى باقي النقاط التي تريد. قياساً عليه، فإن **آدم وحوّاء**، عندما أُهبطا من الجنة، نزلا في مكة، على صخرتي **الصفا والمروة**، وهما أقرب نقطتين إلى **جنة الخلد**. هناك بُني البيت الحرام، الذي أعاد بناءه إبراهيم الخليل. وإبراهيم هو صاحب **الدين الحنيف**، القريب من الله رب العالمين، والمريد للبقاء على مقربة من السماء.

ويرى بعض العلماء، أن مكة عامة والكعبة الشريفة تحديداً، هي **نقطة الوسط من الكرة الأرضية**.

تركنا مكة إلى **عرفات**، وفي الذهن منها صورتان:

- صورة **الازدحام العظيم**، لحجيج تجد بينهم العاقل المستنير، كما تجد الأمي، أو الجاهل، أو الضعيف، أو السخيف، أو الثقيل الظل أو اللئيم... وقد التزموا جميعاً بنسبٍ مختلفةٍ بلائية الجدال في الحج.

- وصورة **الحاج** الجالس في رحاب الكعبة، وقد أعياه التعب الشديد، فتربّع على زاويةٍ، أو ممرٍ، أو طرف باحة؛ حافي القدمين، شاخصاً ببصره إلى البيت الحرام، يرخي بثقل جسمه على بلاطٍ تنعشه برودته، وينجذب للبيت جذباً، فتصفو نفسه، ويستريح... وإذا عطش، قام وارتوى من **ماء زمزم**[1].

---

(١) بئر زمزم، الموجود في جوار الكعبة، والذي تفجّر بينما كانت هاجر تبحث لرضيعها عن الماء في خبايا السراب، لم يكن معجزة بتفجّره ليروي عطش الطفل إسماعيل فقط؛ =

في عرفات، وقف الحجيج من **الزوال إلى مغيب** اليوم السابق **لعيد الأضحى** المبارك. غابة من الخيم لإيواء الحجيج. تحسّ وأنت ترقد في خيمتك، أو تنتقل بين الخيم في الممرات الترابية، أن الذكرى تعود بك إلى ما تعرفه وتتخيله عن **أيام البداوة** في الجزيرة العربية. أو إلى **أزقّة وزواريب الضيعة** اللبنانية منذ أكثر من خمسين عاماً، يوم كانت تلك الأزقة ترابية وموحلة. داخل الخيم وخارجها **تزول الفروقات المصطنعة التي بين الناس.** لا تعرف فقيرهم من غنيّهم، ولا عالِمَهم من جاهلهم، ولا صاحب الحسب والنسب من الفقيْر إليه تعالى. **الكل متساوون أمام الله.** تواجدوا فخضعوا لوحدتي **الزمان والمكان،** إضافة إلى وحدة **المظهر** في ثياب الإحرام. أنهوا وقوفهم وابتهالاتهم، وختموا أدعيتهم، ثم ركبوا حافلاتهم أو اعتلوا سطوحها، إحراماً وعدم تظلّل، واتجهوا إلى **المزدلفة، أو المشعر الحرام،** وسط غيوم من الغبار الممزوج بدخان الحافلات الأسود الكثيف، مما يكفي لتلويث بيئةٍ وإحلال المرض في جسم كل كائنٍ حيٍ من أحيائها.

أشرفنا على المشعر الحرام، سَحَرَ يوم عيد الأضحى المبارك، فطالَعَنا **بحرٌ أبيض** من الحجيج، يرقدون أو يتحركون في أرضٍ تقدَّر مساحتها بآلاف الدونمات. **ما بين طلوع الفجر وشروق الشمس،** أنت مجرّد نقطةٍ في هذا البحر البشري الهادر.

بعدها، تمّ التوجّه إلى مِنىً، **وقد جمع** كل واحدٍ من الملايين

= لكنه معجزة دائمة أبدية، طالما هو مصدر للماء في أرضٍ قاحلة، وسط جبالٍ محروقة كالفحم، لا مطر فيها ولا حياة!.

المحتشدة حوالي ستين حُصيّة استعداداً **لرمي الجمرات، أو رجم الشياطين.**

عملية الرجم، أو رمي الجمرات الثلاث، الكبرى والوسطى والصغرى، كل واحدة **بسبع حصيّات**، ومرتين في يومين متتاليين إضافة إلى رمي الجمرة الكبرى أو الشيطان الأكبر وحده صبيحة يوم العيد؛ هي عملية شاقة جداً، وخطرة، بسبب تظافر الحر والازدحام. فالرجم عموماً أصعب من السعي والطواف(١)، إن لجهة الدهس، أو «الفعفسة»، أو الاختناق من شدة الحر وتلاحم الأنفاس؛ مع احتمال أن تنصبّ حصيّات الراجمين، من ورائك أو من الجهة المقابلة، على رأسك أو وجهك فتدميك.

كان يمكن لبعض **التنظيم** أن يخفف عن كواهل الراجمين، مثل تنظيم المرور، والفصل بين الذاهبين والعائدين، ومنع مرور السيارات، وإيقاف الناس وإدخالهم في صفوفٍ منتظمة متحركة؛ لكن شيئاً من ذلك لم يحصل.

والرجم بظاهره ممارسة قد يستخفّ بها البعض. **لكن العبرة ليست في ظاهر الفريضة، بل فيما ترمز إليه.** أشبّه الرامي بالخطيب، الذي عندما يتكلم، يؤشر بيديه ورأسه وعينيه، ليعطي لكلامه قوة ومعنى. أو كقارىء الصلاة، واقفاً، راكعاً، ساجداً، قانتاً، مكبّراً مقبّلاً متلفّتاً؛ ولا يصلي جالساً أو نائماً إلاّ مُقعدٌ أو مريض. فما أجمل أن تقول: **اللّهم اقهر الشيطان عني**، اللّهم أخرجه من نفسي وحياتي، وأنت ترمي الحصية تلو الحصية، تتبعها ببصرك، تراها أصابت أم

---

(١) لذلك أجاز الله أن ينوب القوي، في الرجم، عن الضعيف.

أخطأت، وذلك من بين آلاف الحصيات المنهمرة على رأس الشيطان **وابلاً من مطر**. في الرجم، كما في السعي والطواف، أنت تستعمل جسدك، إنما للخروج من الجسد نفسه. إنك **تعبر بوابة الجسد إلى الروح**، بواسطة الجسد نفسه، كالقبطان الذي يُبحر على سطح الماء وضد الغرق فيه بقوة الماء نفسه، أو كالطائر الذي يحلق في الفضاء، بقوة الهواء، وضد السقوط فيه.

ويلفت نظرك وسط الضجيج والصخب، رجل يحمل أمه فوق كتفيه، ويتقدم بها باتجاه الجمرة الكبرى، لتمكينها من الرمي بنفسها. كما يلفت نظرك أيضاً، وعلى مسافة غير قليلة من الشيطان الأكبر، **رجل يحمل أمه على ظهره**، وقد امتص الكِبر والعجز صباها. وهو يسير بها حثيثاً، ليدخلها النفقَ ويمكّنها من رمي حصياتها!.

* * *

عندما كنت مستلقياً في خيمتي أرتاح من عناء المسير، شدّ سمعي في الخيمة المجاورة صوت حاجٍ، يشتم مجهولاً، «نعره» في صدره أثناء الطواف حول الكعبة، وقد انتقل وجعه معه إلى منىً ولا يزال، فتنبّهت لألمٍ أحسّ به في ذراعي الأيسر، وعرفت أنه نتيجة «الكشةِ» ما أحسستُ بها في حينها. وعدت بالخيال إلى زحمة طواف حجّ التمتّع، وإلى سعيه الذي صادف حصوله يوم جمعةٍ ظهراً، فاختلط الساعون بالمصلين، وتدافعوا حتى السقوط أرضاً. لم يبْقِ الازدحام لنملةٍ موطىء قدم، وكاد كثيرون يلفظون أنفاسهم تعباً وعطشاً وعرقاً متصبباً. تعجز وحدة المكان عن استيعاب الملايين الثلاثة اليوم، فكيف سيكون الأمر بعد خمسين عاماً، أو مئة عامٍ، أو أكثر؟

آثار حفيظتي الذين يحجّون معنا للمرة الثانية، ومنهم للمرة الثالثة. وبعضهم الرابعة؛ في الوقت الذي حُرِم الكثيرون من أهل بلدي من أداء هذه الفريضة للمرة الأولى! **الطمع بالدين صحيح**، لكنما ليس بهذه الطريقة التي شاعت فيها السمسرة والرشوة والوساطات. للحصول على سمات دخول إلى المملكة العربية السعودية لأداء فريضة الحج. المسألة تستدعي إعادة نظرٍ من قبل القيّمين على الموضوع عندنا، كما تستدعي التنظيم والضبط الذي يؤمّن العدل ويحقق الإنصاف: إذ لا يجوز أن يحجّ مسلم للمرة الرابعة، وغيره من المستطيعين **«يتحسّرون»** على المرة الأولى، **فلا يتمكنون!**

بقيت مسترسلاً في استعراض الهموم، والمتاعب، والمشاق والمشاكل كلها؛ حتى ظهرت لي صورة الأعمال والممارسات التعبديّة الخاصة بفريضة الحجّ، كأنها الأشغال الشاقة تماماً. ولكنها **أشغالٌ شاقة لذيذة**، نقوم بها طوعاً ورغبةً واندفاعاً. سمع أحدهم مني هذه التسمية، فعقّب واصفاً الحجّ **بالعذاب العذب!** بقيت مسترسلاً إلى أن لسعتني بعوضةٌ سحبت دمي، ولم أستطع قتلها بسبب الإحرام، رغم الألم الشديد، فتركتها وشأنها. وتذكرت الصرصور الذي كان يهيم على رأس امرأةٍ مُحرمةٍ في المسجد الحرام، وهي لا تفعل به شيئاً! ولو كان ذلك في غير الإحرام لكانت قد ضجّت به، أو سحقته. عجيب أمر البعض، لا بل الكثيرين من حجيجنا؛ إنهم **يحجمون عن قتلِ بعوضةٍ** امتثالاً لشرائط الإحرام، **ولا يتورعون عن معاندة بعضهم بعضاً**، تشاجراً وتضارباً وشتماً ومضايقات!

* * *

إن **ثواب** فريضة الحجّ عند الله كبير. والأجر في الآخرة يكون على **قدر المشقة**. من هنا العذاب العذب، والأشغال الشاقة اللذيذة. وبالمقارنة مع فريضتي الصوم والصلاة، فإن هذه العبادات الثلاث تختلف في **تمظهرها الاجتماعي**، وبالتالي في قيمها التناسبية.

فالصلاة، التي هي **عمود الدين**، هي الفريضة الأقل، تمظهراً اجتماعياً، من حيث الارتباط بعاملي الزمان والمكان. ففيما عدا **صلاة الجمعة**، يصلي كل إنسانٍ بمفرده، في المكان الذي يريد، وعلى امتداد فترة زمنية معينة[1].

أما **الصيام** فيزيد فيه التمظهر الاجتماعي ويتبلور، عندما يتقيّد الصائمون تماماً بعامل الزمان في كل أصقاع الأرض، فيصومون شهر رمضان، ويعيّدون عيد الفطر الأول من شوال. وخلال شهر الصوم، يمسكون عنِ الطعام فجراً، ويُفطرون مع المغيب[2].

ومع **الحجّ** يبلغ التمظهر الاجتماعي للعبادة قمته، التزاماً بعاملي **المكان والزمان** معاً. فلا حجّ إلاّ في شهر ذي الحجّة من كل عام، ما بين الثامن والثاني عشر منه. ولا طواف إلاّ حول الكعبة المشرّفة، ولا سعي إلاّ بين الصفا والمروة، ولا وقوف إلاّ في عرفات ومن الزوال إلى المغيب، ولا تواجد إلاّ في المشعر الحرام من طلوع الفجر إلى شروق الشمس، ولا مبيت إلاّ في مِنىً ليلتي الحادي عشر والثاني عشر من شهر ذي الحجة، مع رمي الجمرات فيها على مدى ثلاثة أيامٍ متتالية.

---

(1) ما بين الزوال والمغرب مثلاً لصلاتي الظهر والعصر.

(2) ﴿... وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ...﴾ سورة البقرة، الآية: ١٨٧م.

أمكنة محدّدة وأزمنة معيّنة، يلتقي فيها الحجيج، يؤدون فريضة **فردية في إطار اجتماعي**، وطوابع اجتماعية. إنهم يتلاقون، في عرفات **يتعارفون**، وبين الصفا والمروة **يسعون بحثاً عن الفضيلة** والاستقامة وتخلياً عن النقيصة والانحراف، وبالطواف حول البيت الحرام **يرّسخون إيمانهم**، فتأتلف قلوبهم، وتنشأ بينهم صداقات متينة تستمر وتستمر. يعبّرون عن عظيم قوّتهم وهم المجتمعون من كل فجٍ عميق، ثم يعودون إلى بلدانهم، ينقلون مشاهداتهم، يساعدون على ترسيخ الإيمان في نفوس الآخرين، وعلى تثبيت الاستقامة وكمال السلوك. ويرغب سامعوهم في أداء الفريضة.

والعبادة، كلما كانت **فردية**، كلما كانت أساسية وأكثر **وجوباً**. كالصلاة، فهي الأوجب أداءً، نسبةً إلى الصيام الذي **رخّص الله بتركه** في حالتي السفر والمرض، على أساس العدّة من أيامٍ أخر. أما الحجُ، فلمن **استطاع إليه سبيلاً**.

هكذا، يتناسب التمظهر الاجتماعي للفريضة **عكساً** مع وجوبها. فكلما كانت الفريضة أوجب، كلما كان التمظهر الاجتماعي فيها أقل. وكلما كانت الفريضة أقل وجوباً، كلما اشتد فيها التمظهر الاجتماعي.

أما ثواب الفريضة فيتناسب **طرداً** مع تمظهرها الاجتماعي. فكلما اقترنت الفريضة الأوجب، والأكثر لزوماً، بالفريضة الأقل وجوباً والأكثر تمظهراً اجتماعياً، كلما زاد ثوابها. **كصلاة الصائم**، فهي أكثر ثواباً من صلاة المفطر، أو **كصلاة وصيام الحاجّ** في الكعبة، فثوابهما أكبر وأهمّ، إذ أن ثواب صلاةٍ تقام في جوار الكعبة خلف مقام إبراهيم، يعادل ثواب آلاف الصلوات العادية في الأمصار

والأطراف. بهذا يفتي المجتهدون. أما فريضة الحجّ، وهي الأقل وجوباً، والأشد تمظهراً اجتماعياً من جميع الفرائض، فهي المطهّرة من الذنوب كلها، وبها **تُعتق من النار الرقاب!**

ولا يعتقدنَ أحدٌ أن الحجّ وحده كافٍ لغسل الذنوب، ما لم يقترن بالتوبة واتباع الصراط المستقيم. فمن الخطأ الجسيم أن يحجّ ذو معصيةٍ غير واثق من إقلاعه عن المعصية، بغية الغفران، مع البقاء على الغيّ أو العودة إليه. لذلك لا ننصحنّ أحداً بالحجّ إلاّ بعد أن يستقيم سلوكه ويقترب من الكمال، **فيتوّج** هذه الاستقامة بحجّةٍ تغفر الذنوب وتُثبّت على الصراط المستقيم.

* * *

إنك تُنهي جميع واجباتك المفروضة، دون أن تملّ أو تشبع أو تكتفي؛ فتبقى في نفسك رغبةٌ وحزازة:

أما الرغبة ففي التوق لزيارة **جبل النور**، حيث **غار حراء**، الذي اختلى فيه محمد ﷺ إلى ربه، وبلّغه فيه **جبريلُ** الوحي. جبل وعر المسالك مرتفع، تكفي زلة قدم واحدة لأحد المتسلقين من الحجّاج، وسط الازدحام الكثيف، ليهبط ذلك الحاج على رفاقه، فيتدحرجون، وتحصل الكارثة. لكن الآلاف المؤلفة يتسلقون ويعودون سالمين بإذن ربهم. ولقد كان رائعاً أن نتسلّق الشعاب التي كان يتسلقها **رسول الله** منذ أربعة عشر قرناً، وإن عُدّ ذلك من الأشغال الشاقة فهي لذيذة. ولولا الرغبة في القيام بها لما فعلها فاعل ولو دُفعت له المقادير المقدّرة. وكان الأروع أن تقف في غار حراء نفسه، وأن ترى منه بثاقب بصرك الكعبة الشريفة.

وأما الحزازة، ففي الخوف من أن تعود أدراجك إلى بلدك، دون أن يتسنّى لك أن تُقبِّل **الحجر الأسود** أو تلمسه، مع كون ذلك أمراً مستحباً غير واجب.

لقد حزّ في نفسي ذلك، فالحجر الأسود من أهمّ رموز الكعبة، وركنه الركن الأساسي الذي يبدأ منه وينتهي إليه الطواف. قيل فيه إنه **ملاكٌ متجسِّدٌ**، كان أبيض فاسودّ مع مرور الأيام عندما استوعب ذنوب الناس كلهم. وقيل إنه **درّة** من دُرَرِ الجنّة، كانت بيضاء أيضاً وقد سوّدتها الذنوب. أما الإصرار على لمسه فمخاطرة، وفي تقبيله مخاطرة أكبر من لمسه.

تتقدم باتجاهه فلا يمكّنك المتزاحمون من الوصول. تجتاحك **موجة بشرية** هائلة فتخلعك من مكانك كلما اقتربت منه، أو تقرّبك منه موجة وتردك عنه أخرى. يعصرونك عصراً وأنت لا حول لك ولا قوة. تصرّ، وتعيد الكرّة، فيقطع عليك الطريق **حاجٌ** ماردٌ، أو مجموعة من الحجاج متراصّة لا تخترق. تحاول ركوب موجةٍ والوصول بواسطتها، فيوقفك حاج فدائي وصل إلى الحجر بقدرة قادرٍ أو بعد جهدٍ جهيد، فأمسك بإطاره **الفضّي** بكلتا يديه، وأدخل رأسه في **جوفه** وراح يقبّله فلا يشبع، ويستمر في تقبيله غير آبهٍ بالآلاف المؤلفة المتدافعة خلفه. من المؤكّد أن ذلك الشخص قد نسينا جميعاً، فما يدرك أو يحس إلاّ بنفسه وبالحجر الأسود يتوّج به رأسه.

كنت في الخِضَمّ، ها قد قربت يدي اليسرى من ملامسته، تفصلني عنه مسافة عشرة سنتمتراتٍ فقط، لكنها مسافة بعيدة زمنياً، فقد تستمر على هذه الحال عشرات الدقائق، وقد تخسر إنجازك هذا

مع موجةٍ تجتاحك. بحثت عن ذراعي اليمنى فإذا هي عالقة بين مكبسين بشريين ولا أستطيع سحبها. أما حاملة ماطرتي المعلقة في عنقي، وهي متينة لا يقوى رجلان على قطعها، فقد تقطّعت دون أن أحسّ بها. رحت أدعو وأردّد: «ربّ مكنّي من لمسه وأخرج»... إلى أن تيسّر لي ذلك، فمسحت إطاره الفضّي بباطن كفي، ثم أدخلتها جوفه، فلم أتحسّس سوى أكفٍ لا عداد لها. بقيت واعياً لنفسي وللآلاف المؤلفة التي تتدافع، تحاول، وتنتظر؛ فاكتفيت وانسحبت بسلام، وفي نفسي **نصيحة** أسديها لكل أخٍ مؤمن كريم: إياك أن تحجّ إلاّ وأنت في **مقتبل العمر**، إذا كنت مستطيعاً لذلك سبيلاً!

بعدها، خرجت تدريجياً من بين الجموع المتحركة، والأمواج المتلاطمة، واتجهت إلى أطراف الفِناء، في طريقي إلى مخرجٍ من مخارج البيت الحرام، وإذا بكل باحةٍ، وقاعةٍ، وممرٍ، وزاويةٍ وسطح، قد افترش بالحجيج فرشاً، فلا مكان لك لتضع قدمك، إنه الاستعداد لصلاة المغرب فموعدها يحين.

نظرت خلفي كمن يودّع حبيباً لا طاقة له على فراقه؛ قلت وداعاً للكعبة المشرّفة، وداعاً لبيت الله الحرام، وخرجت، ونفسي عالقةٌ بكل جدارٍ من جدرانه وركنٍ من أركانه، أعشقه، من رهبةِ وعظمةِ سواده، حتى آثار قَدَمَيْ إبراهيم الخالدتين في مقامه العزيز!.

فهرست المحتويات

كتب للمؤلف

١ ـ القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره (تعريب).

٢ ـ تهافت الفلاسفة (تحقيق وتحليل).

٣ ـ مشكلة الصراع بين الفلسفة والدين.

٤ ـ Précis de philosophie générale Action et connaissance.

٥ ـ علم اجتماع المعرفة.

٦ ـ الفلسفة ومشكلات الإنسان.

٧ ـ الإشراف التربوي.

٨ ـ ذكريات وحنين.